أميرة وزن الريشة

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب : أميرة وزن الريشة
تأليف : جورج مكدونالد
ترجمة : أحمد صلاح المهدي
مراجعة : جهاد صلاح
تدقيق لغوي : محمود المهدي
تصميم الغلاف : عمار جمال
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٧٢٤٣ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 61 - 8

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

جميع الحقوق محفوظة

أميرة
وزن الريشة

تأليف

جورج مكدونالد

ترجمة

أحمد صلاح المهدي

مقدمة المترجم

يعد الكاتب الإسكتلندي جورج ماكدونالد (١٠ ديسمبر ١٨٢٤ – ١٨ سبتمبر ١٩٠٥) واحدًا من رواد أدب الفانتازيا الحديثة، ولحكاياته الشعبية ورواياته الفانتازية أثر على العديد من الكتّاب الذين كتبوا في هذا المجال لاحقًا. ولد ماكدونالد في فترة نشطت فيها حركة جمع الأساطير في أوروبا، مثل الأخوين جريم (١٧٨٥-١٨٦٣) في ألمانيا، ومن أشهر الحكايات التي جمعاها: ذات الرداء الأحمر وبياض الثلج ورابنزل، وشارل بيرو (١٦٢٨-١٧٠٣) في فرنسا، ومن أشهر الحكايات التي جمعها: الجمال النائم وعقلة الإصبع وسندريلا، ووليام بتلر ييتس (١٨٦٥-١٩٣٩) في أيرلندا، ومن أشهر الحكايات التي جمعها: زمار القرية وعشاء القس والطفل المخطوف. وبعد ذلك انتقل المهتمون بالحكايات الشعبية من مرحلة الجمع إلى مرحلة التأليف، مثل هانز كريستيان أندرسن (١٨٠٥-١٨٧٥) الذي جمع العديد من الحكايات

الشعبية الدنماركية، ولكنه تجاوز ذلك إلى مرحلة الكتابة والتأليف، فكتب عدداً من الحكايات الشعبية بنفسه مثل: بائعة الكبريت وملكة الثلج وحورية البحر الصغيرة، ولكنها ظلت حكايات تحمل الطابع نفسه للحكايات الشعبية الأخرى التي تحاكيها.

كان ماكدونالد من الكتّاب الذين اهتموا بمحاكاة الحكايات الشعبية وتأليف حكايات جديدة على غرارها، فاهتم بخلق عوالم خيالية من الأبطال والساحرات والجنيات والعفاريت والمخلوقات الأسطورية المختلفة، وتراوحت أعماله في الطول من الحكايات الشعبية القصيرة مثل «المفتاح الذهبي» و«المرأة الحكيمة» والكتاب الموجود بين يدينا الآن «أميرة وزن الريشة»، إلى روايات الفانتازيا الطويلة مثل «الأميرة والجوبلِن» و«فانتازيس» و«ليليث».

وضعت كتب ماكدونالد حجر الأساس للعديد من كتّاب الفانتازيا من بعده، فقد تتلمذ سي إس لويس مؤلف سلسلة روايات نارنيا على يده، وقد وصف ماكدونالد بأنه «أستاذه» وقال إنه قد اقتنى نسخة من كتابه «فانتازيس» من متجر كتب في إحدى محطات القراءات، يقول: «بدأتُ أقرأ الكتاب، وبعد بضع ساعات أدركت أنني قد عبرت حدًّا فاصلًا عظيمًا». أما جي. كي. تشيسترتون مبتكر شخصية الأب براون، فقد قال عن كتاب «الأميرة والجوبلِن» إنه قد صنع فارقًا في وجوده بأكمله. وقد

تصادق جورج ماكدونالد مع الكاتب مارك توين الشهير بمغامرات هاكلبري فان ومغامرات توم سوير، وهناك بعض الدلائل على أن مارك توين قد تأثر به.

وكان ماكدونالد معلمًا للكاتب لويس كارول مؤلف رواية «مغامرات أليس في بلاد العجائب»، وكان رد فعل أبناء جورج ماكدونالد المتحمس لرواية أليس هو ما شجعه على السعي لنشرها، فقد كان لدى جورج ماكدونالد أحد عشر ابنًا وبنتًا. وقد أخذ لويس كارول عن ماكدونالد فن التلاعب بالكلمات في الحكايات وهو ما سنراه حاضرًا بقوة في «أميرة وزن الريشة» حيث يوجد الكثير من النكات والكلمات التي تحمل أكثر من معنى.

مع أن جورج ماكدونالد يعد كاتبًا في أدب الطفل، إلا أنه يقول عن نفسه: «أنا لا أكتب للأطفال، ولكن لكل من يحمل روح طفل، سواء كان في الخامسة أو الخمسين أو الخامسة والسبعين.»

المترجم

***

ماذا! لا أطفال؟

كان ياما كان في قديم الزمان، قديمًا للغاية حتى أنني قد نسيت التاريخ بالضبط، في مملكة تدعى «لاجوبل»، يعيش ملك وملكة لم يرزقا بأبناء.

قال الملك لنفسه: «كل الملكات اللاتي أعرفهن لديهن أطفال، بعضهن ثلاثة، وبعضهن سبعة، وبعضهن لديهن عدد كبير يصل إلى اثنيّ عشر طفلاً، وزوجتي لم تنجب حتى طفلًا واحدًا. أشعر بأنني مغبون.» لذا حسم أمره بأن يكون صارمًا في الأمر مع زوجته، وقد تحملت هي الأمر كملكة جيدة صبور كما هي عادتها. ثم صار الملك غاضبًا حقًّا، ولكن الملكة تظاهرت بأنها تعتبر الأمر كله مزحة، بل ومزحة جيدة أيضًا.

قال لها: «لِمَ لا تنجبين بناتٍ على الأقل؟ لا أقول أولاداً، فهكذا أكون قد رفعت سقف توقعاتي أكثر من اللازم.»

قالت الملكة: «أنا أتفهم ذلك يا ملكي العزيز، وأشعر بالأسف حقًا.»

رد عليها الملك بحدة قائلًا: «هذا ما يفترض عليكِ الشعور به، لن تتظاهري بأن هذه فضيلةٌ منكِ بالطبع.»

لم يكن ملكًا حاد الطباع، وفي أي مسألةٍ أقلَّ شأنًا مِن هذه كان على أتم استعداد ليترك الملكة تدير الأمر بمعرفتها، ولكن هذه المسألة تتعلق بشؤون المملكة.

ابتسمت الملكة، وقالت: «عليك أن تتحلى بالصبر مع النساء كما تعرف يا ملكي العزيز.»

لقد كانت حقًّا ملكة لطيفة للغاية، وتشعر بالأسف من أعماق قلبها لأنها لا تستطيع تلبية رغبة الملك على الفور.

***

لم ينس سواي؟

حاول الملك أن يتحلى بالصبر، ولكنه لاقى فشلًا ذريعًا في ذلك. كان يشعر أنه يستحق أفضل من ذلك، لذا لم يتمالك نفسه من البكاء عندما أنجبت له الملكة أخيرًا طفلة، أميرة كأجمل ما تكون الأميرات.

اقترب وقت تعميد الطفلة. كتب الملك كُلَّ الدعوات بيده، ولكنه بالطبع نسي شخصًا ما. عادةً لا يهتم الآخرون إذا نسي شخصٌ ما، أنت وحدك يجب أن تهتم بالتفكير فيمن ستدعوه، ولكن لسوء الحظ نسي الملك شخصًا دون قصد منه، وشاء القدر أن يكون مَنْ نسيه هي الأميرة «ماكنويت»، وكان هذا أمرًا محرجًا، فالأميرة هي أخت الملك، ولم يكن يُفترض به أن ينساها. كان أبوهما الملك العجوز غير راضٍ عنها لدرجة أنه نسيها وهو يكتب

وصيته، وبالتالي لم يكن من العجيب أن ينساها أخوها وهو يكتب الدعوات. ولكن الأقارب الذين تسوء علاقتك بهم لا يتركون أيَّ انطباعٍ يجعلك تذكرهم، وكيف يفعلون ذلك؟ لم يكن باستطاعة الملك أن يراها بداخل العلية التي تسكن بها، أليس كذلك؟

كانت مخلوقًا كريهًا حقودًا، تقاطعت تجاعيد الازدراء في وجهها مع تجاعيد طباعها الحادة، فجعلت وجهها يعج بالتجاعيد كقالبٍ من الزبد. إذا كان الملك معذورًا في نسيان أي شخص، فسيكون معذورًا في نسيان أخته، حتى في التعميد. كانت تبدو غريبةً للغاية؛ جبهتها ضخمة كبقية وجهها، وتبرز عن وجهها كَحافَّةٍ هاوية. عندما تكون غاضبةً، تلمع عيناها الصغيرتان ببريقٍ أزرق. عندما تكره أحدًا تلمعان ببريقٍ أصفر وأخضر. لا أعرف ما الذي يحدث عندما تحب أحدًا، فهي لا تحب أحدًا عدا نفسها، ولا أعتقد أنه كان بإمكانها حتى أن تحب نفسها لولا أنها قد اعتادت على نفسها بشكلٍ ما. ولكن ما جعل نسيان الملك لها أمرًا طائشًا هو كونها بارعةً بشكلٍ مخيف، في الواقع كانت ساحرة، وعندما تسحر أحدًا فإنه سرعان ما ينال كفايته من ذلك، فهي تغلب كل الجنيات الشريرات في الشر، وتغلب كل الجنيات البارعات في البراعة. كانت تزدري كُلَّ الطرق التي نقرأ عنها في التاريخ والتي

تنال بها الساحرات والجنيات انتقامهن ممن أهانهن. لذا، وبعد أن انتظرت الدعوة طويلًا بلا فائدة، حسمت أمرها أخيرًا أن تذهب بلا دعوة، وأن تتصرف كأميرة بحق وتجعل الأسرة كلها تعيسة.

ارتدت أفضل فستانٍ لديها، وتوجهت إلى القصر، فاستقبلها الملك السعيد بطلفٍ بالغ، وقد نسي أنه قد نسي دعوتها، واتخذت موضعها في الموكب المتجه إلى الكنيسة الملكية. عندما تجمعوا حول جرن المعمودية، تحايلت حتى وقفت بجواره، ثم ألقت شيئًا في الماء. واستطاعت بعدها أن تحتفظ برباطة جأشها حتى سُكِب الماء على وجه الطفلة، حينها دارت حول نفسها ثلاثَ مرات، وتمتمت بالكلمات التالية، بصوتٍ عالٍ بما يكفي حتى يسمعها المحيطون بها:

«بحَق سِحري تَصِير رُوحك خَفِيفَة

ويصير جَسَدك في خِفَّةِ الرِّيشَة

لنْ يَشْعُرَ مَن يَحْمِلُك أنَّك ثَقِيلَة

فيَحْزَنُ أبوكِ وتَصِيرُ أُمُّكِ تَعِيسَة»

ظنوا جميعًا أنها قد فقدت عقلها، وأنها تردد أغنيةَ أطفالٍ حمقاءَ ما، ورغم ذلك سرت بينهم جميعًا قشعريرة باردة. ولكن الطفلة

على عكسهم راحت تضحك وتصيح ببهجة، بينما جفلت المربية وقد اختنقت صرخةٌ في حلقها، فقد ظَنَّت أن الشلل قد أصابها؛ لم تعد تستطيع الإحساس بالطفلة بين ذراعيها، ولكنها ضمتها بقوة ولم تقل شيئًا، لقد تحققت التعويذة الشريرة.

***

لا يمكن أن تكون ابنتنا؟

لقد حرمتها عمتها الفظيعة من كل أثرٍ للجاذبية الأرضية عليها. وإذا سألت كيف استطاعت فعل ذلك أقول لك: «بأسهل طريقة في الدنيا، كان عليا فقط أن تلغي قوة الجذب»، فالأميرة كانت فيلسوفةً وتعرف كُلَّ شاردةٍ وواردةٍ متعلقة بقوانين الجاذبية، بنفس البساطة التي تعرف بها كيف تعقد رباط حذائها. وبسبب كونها ساحرةً في الوقت ذاته، كانت تستطيع أن تُبْطِلَ تلك القوانين في الحال، أو على الأقل تضعف من تأثيرها وتبطئ مفعولها، فلا تعمل على الإطلاق. ولكن لا يجب أن نشغل بالنا بكيف حدث ذلك، بل بما سيترتب على ذلك لاحقًا.

أول المواقف الغريبة المحرجة التي حدثت بعد حرمانها المؤسف من الجاذبية كان عندما حاولت المربية أن تهدهد الطفلة بأن

تؤرجحها لأعلى وأسفل، فخلقت من ذراعيها ناحية السقف، لحسن الحظ أبطأت مقاومة الهواء من سرعة صعودها حتى توقفت تمامًا قبل السقف بمسافة قدم. استقرَّت هناك، في وضعٍ أفقي كما كانت عندما أفلتت من ذراعيّ مربيتها، تركل الهواء بقدميها وتضحك بشكلٍ مثيرٍ للدهشة. ركضت المربية في رعبٍ ناحية الجرس، وتوسلت للخادم الذي أجاب الجرس لكي يحضر السُّلَّمَ المنزلي على الفور. بأطرافٍ مرتعشة صعدت درجات السلم، واضطرت للوقوف على أعلى درجةٍ فيه، ومدت يديها لأعلى لتمسك بذيل الملابس الطويلة للطفلة المحلقة.

ساد القصر هرج ومرج بعد معرفة الحقيقة الغريبة، وكانت تجربة الملك عند اكتشاف ذلك هي تكرارًا لما حدث مع المربية، أحس بدهشة شديدة عندما حملها بين ذراعيه فلم يشعر بوزنها، وبدأ يؤرجحها لأعلى فلم تهبط لأسفل، فقد ارتفعت ببطء ناحية السقف كما حدث من قبل، وبقيت هناك محلقة في راحة ورضا بالغين، كما دل على ذلك جلجلة ضحكاتها الصغيرة. حدق الملك لأعلى في دهشة عاجزًا عن الحديث، وراح يرتجف حتى أن لحيته بدت كحشائشَ في مهبِّ الريح. وأخيرًا نظر إلى الملكة التي كانت مصعوقةً في رعبٍ مثله وقال هو يلهث ويحدق ويتلعثم:

«لا يمكن أن تكون هذه ابنتنا، أيتها الملكة.»

كانت الملكة أكثر فطنة من الملك، وبدأت بالفعل تشك في أن «هذا العيب قد حدث لسبب ما».

أجابته قائلة:

«أنا واثقة أنها ابنتنا، ولكن كان يجدر بنا أن نوليها رعايةً واهتمامًا أفضل في التعميد، لم يجدر بنا السماح بحضور هؤلاء الذين لم يتلقوا دعوة.»

قال الملك وهو ينقر بسبابته على جبهته: «رباه! لقد عرفت الفاعل، ألا ترين أيتها الملكة؟ لقد سحرتها الأميرة ماكمنويت.»

أجابته الملكة: «هذا ما قلته للتو.»

قال الملك:

«أستميحكِ عذرًا يا حبيبتي؛ لم أسمع ما قلتِه. جون! أحضر السلم الذي أصعد به إلى عرشي».

فقد كان ملكًا ضئيلًا بعرشٍ عظيم، مثل العديد من الملوك الآخرين.

جُلِبَ سلم العرش، ووُضِعَ على طاولة الطعام، ثم صعد جون أعلى الدرج، ولكنه لم يستطع الوصول إلى الأميرة الصغيرة، التي استقرت كسحابة طفولية ضاحكة في الهواء، تبرق بالضحك بلا انقطاع.

قال جلالته: «خذ هذا الملقط يا جون»، ثم صعد فوق الطاولة وناوله إياه.

استطاع جون حينها الوصول إلى الطفلة، وجلبها لأسفل بالملقط.

***

أين هي؟

ذاتَ يومٍ صيفيّ لطيف، وبعد شهرٍ من مغامراتها الأولى، خضعت خلاله لمراقبةٍ بالغةٍ وعنايةٍ شديدة، كانت الأميرة على الفراش في حجرة نوم الملكة، تغط في نومٍ عميق. كانت إحدى النوافذ مفتوحة، لأن الوقت كان الظهيرة، وكان اليوم قائظًا للغاية حتى أن الأميرة لم تتدثر سوى بغطاءٍ خفيف أكثرَ خِفَّة من النوم ذاته. دلفت الملكة إلى الحجرة، ولم تلحظ كون الطفلة على الفراش، ففتحت نافذةً أخرى. كان هناك نسمة هواء لاهية عابثة ترقب أيَّ فرصةٍ لإحداث الشغب، فاندفعت عبر تلك النافذة، وشَقَّت طريقَها إلى الفراش حيث ترقد الطفلة، فأمسكت بها، ولَفَّتْها وحَلَّقَتْ بها كالدخان، أو بذور زهرة الهِنْدَبَاءُ، ثم حملتها عبر النافذة المقابلة، وانطلقت بها بعيدًا. هَبَطَتِ الملكة درجاتِ السُّلَّم، جاهلةً تمامًا بالخسارة التي تسببت فيها بنفسها.

عندما عادت المربية، افترضت أنَّ جلالةَ الملكة قد أخذت الطفلة، وخوفًا من التَوْبِيخ أَحْجَمت عن سؤالها عن الطفلة، ولكنها بمرور الوقت لم تسمع شيئًا، فبدأ القلق يتنامى بداخلها، وأخيرًا ذهبت إلى مخدع الملكة، حيث وجدت جلالتها فقالت لها:

«لُطفًا يا مولاتي، هل يمكنني أخذ الطفلة؟»

سألتها الملكة: «طفلتي؟ أين هي؟»

قالت المربية: «أرجو المغفرة، أعرف أن ما فعلته كان خاطئًا.»

سألتها الملكة وقد بدت الجدية على وجهها: «ما الذي تقصدينه؟»

صاحت المربية وهي تشبك كفيّها أمام صدرها: «رباه! لا تخيفيني يا مولاتي!»

أدركت الملكة على الفور أن هناك خطبًا ما، فهوت مغشيًّا عليها. أما المربية فقد هرولت في أرجاء القصر وهي تصرخ: «طفلتي! طفلتي!»

ركض الجميع ناحية حجرة الملكة، ولكنها لم تستطع أنْ تُلقي عليهم أيَّ أوامر. إلا أنهم سُرعان ما اكتشفوا اختفاء الأميرة، وفي لحظةٍ تحول القصر إلى خلية نحلٍ في حديقة؛ وبعد مرور دقيقة استعادت الملكة وعيها على إثر الصيحات العالية والتصفيق بالأيدي،

لقد عثروا على الأميرة نائمة أسفل شجيرة ورد، حملتها إليه هبّة الرياح اللاهية الصغيرة، وأكملت فعلها المشاغب بهز الشجرة لِتُمطرَ الصغيرةَ البيضاء النائمةَ بوابلٍ من بتلات الزهور الحمراء، جفلت الصغيرة على إثر الضوضاء التي صنعها الخدم واستيقظت، وفي فرجٍ صاخب راحت تنثر البتلات الحمراء في كل الاتجاهات، كوابلٍ من الرذاذ في غروب الشمس.

خضعت الطفلة منذ ذلك الحين لرقابةٍ أكثرَ حرصًا، ورغم ذلك وقع عددٌ لا حصر له من الحوادث المتعلقة بهذه الصفة الغريبة للأميرة الصغيرة. ولكن لم تكن هناك طفلةٌ في بيت ـ ناهيك عن قصر ـ تجعل جميع من في البيت في مثل هذه الحالة الدائمة من المرح، على الأقل بين الخدم. لم يكن الأمر فقط أنها لا تُتعِب أيدي المربيات في حملها؛ فهي لم تكن تُتعِب قلوبهن أيضًا. وكان من اللطيف لعبُ الكرة بها؛ فلم يكن هناك أدنى خطر من سقوطها؛ يمكنهن أن يلقوها أو يدفعوها أو يطرحوها أرضًا، ولكن لا يمكن أن تسقط من بين أيديهن أرضًا. من الوارد بالطبع أن تطير منهن إلى النار أو حفرة الفحم، أو عبر النافذة، ولكن لم يقع أيٌّ من هذه الحوادث بعد. إذا سمعت ضحكًا مجلجلًا قادمًا من مكانٍ ما مجهول، يمكنك تخمين مصدره. إذا ذهبت إلى المطبخ أو غرفة النوم، فستجد جين وتوماس، وروبرت وسوزان، جميعهم أو

بعضهم، يلعبون الكرةَ مع الأميرة الصغيرة. كانت هي نفسها الكرة، ولم يقلل هذا من استمتاعها بالأمر على الإطلاق. كانت تحلق، من شخصٍ لآخر، منفجرةً في الضحك، وكان الخدم يحبون الكرة نفسها أكثر من اللعبة. ولكن كان عليهم التزام الحرص بعض الشيء، فهي إن دُفعت لأعلى، فلن تعود لأسفل مجددًا دون أن يحضرها أحدهم.

***

ما العمل؟

ولكن بالنسبة للملك والملكة كان الأمر مختلفًا، فذات يوم على سبيل المثال، بعد الإفطار، ذهب الملك إلى خزانة النقود، وبدأ يعد نقوده، لم يشعر بالمتعة في عد النقود كعادته.

قال لنفسه: «تخيل أن كُلَّ عملةٍ ذهبية من هذه تزن ربع أوقية، وابنتي الأميرة الحقيقية التي هي من لحم ودم لا تزن شيئًا على الإطلاق!»

أحس بالكراهية ناحية عملاته الذهبية وهي مستقرة أمامه وعلى وجهها الأصفر ترتسم ابتسامة عريضة من الرضا عن الذات.

كانت الملكة في الردهة، تتناول الخبز والعسل، ولكنها مع اللقمة الثانية انفجرت في البكاء، ولم تستطع ابتلاعها.

سمع الملك نحيبها، فأحس بالسعادة لأن هناك مَن يمكن أن يتشاجر معه، ولا سيما زوجته. ألقى الملك عملاته الذهبية في صندوق المال فأصدرت صوت صلصلة، ثم وضع تاجه على رأسه، واندفع خارجًا إلى الردهة.

صاح قائلًا: «ما سبب كل هذا؟ لمَ تبكين يا جلالة الملكة؟»

قالت الملكة وهي تنظر بأسى إلى وعاء العسل: «لا أستطيع أن آكل.»

أجابها الملك: «لا عجب! فقد تناولتِ إفطارك للتو، بيضتيّ دجاج رومي وثلاث من سمكات الأنشوجة.»

انتحبت جلالتها قائلة: «لا، ليس هذا هو السبب! إنها طفلتي، طفلتي!»

قال الملك: «حسنًا، ما خطب طفلتك؟ إنها لم تصعد عبر المدخنة ولم تهبط عبر البئر، لقد سمعت ضحكاتها للتو».

ورغم ذلك لم يستطع الملك منع نفسه من أن يتنهد، ولكنه حاول أن يتظاهر بأنه يسعل، ثم قال:

«من الجيد بالتأكيد أن يكون المرءُ خفيفَ الظل، سواء كانت ابنتنا أم لا».

أجابته الملكة وقد ارتسمت على وجهها نظرة كأنما تسبر أغوار المستقبل: «من السيئ أن يكون خفيف الرأس.»

قال الملك: «من الجيد أن يكون خفيف اليد.»

أجابته الملكة: «من السيئ أن يكون خفيف الأصابع.»

قال الملك: «من الجيد أن يكون خفيف القدم.»

قالت الملكة: «من السيئ أن يكون...»

ولكن الملك قاطعها بنبرة مُن ينهي مناقشةً لم يواجهه فيها سوى خصمٍ وهمي، والتي انتهت بالتالي بانتصاره: «في الواقع، من الجيد تمامًا أن يكون المرءُ خفيفَ الجسد.»

أجابته الملكة وقد بدأت تفقد أعصابها: «ولكنه من السيئ تمامًا أن يكون خفيف العقل.»

هذه الإجابة الأخيرة أزعجت الملك بشكلٍ واضح، فاستدار على عقبيه عائدًا إلى خزانة النقود مجددًا، ولكن قبل أن يقطع منتصف الطريق إلى هناك، سمع صوت الملكة وهي تصرخ: «ومن السيئ أيضًا أن يكونَ خفيفَ الشعر.» عقدت العزم على أن تكون الكلمة الأخيرة لها، بعدما استعادت حالتها المعنوية مجددًا.

كان شعرُ الملكة أسود كالليل، وشعرُ الملك كان ـ كشعرِ ابنته ـ ذهبيًّا كالصباح. ولكن لم يكن ذلك التعقيب المهين على شعره هو ما جذب انتباهه، ولكن الاستخدام المزدوج لكلمة خفيف؛ فقد كان الملك يكره النكات، وخصوصا التلاعب بالكلمات. كما أنه لم يستطع الجزم إن كانت الملكة قد قالت خفيف الشعر أم خفيف العرش، فربما اختلطت عليها الأحرف وهي تنفث عن غضبها؟

استدار على عقبيه مجددًا وعاد إليها، كانت لا تزال تبدو غاضبة، لأنها كانت تعرف أنها مذنبة، أو بالأحرى لأنها تعرف أنه يظنها كذلك.

قال الملك: «ملكتي العزيزة، الازدواجية من أيِّ نوع هي أمرٌ مرفوضٌ تمامًا بين أيِّ زوجين من أيِّ مكانةٍ اجتماعية، ناهيكِ عن الملوك والملكات؛ وأسوء أنواع الازدواجية من وجهة نظري هي التلاعب بالكلمات.»

قالت الملكة: «مهلًا! أنا لم ألقِ نكتة، ولكني وأدتها في مهدها. أنا أكثرُ امرأةٍ تعيسة في العالم!»

بدت في حالةٍ يُرثى لها، حتى أن الملكَ ضَمَّها بين ذراعيه، ثم جلسا ليتشاورا في الأمر.

قال الملك: «هل تستطيعين تحمل ذلك؟»

قالت الملكة: «لا، لا أستطيع.»

قال الملك: «حسنًا إذن، ما العمل؟»

قالت الملكة: «لا أعرف بالتأكيد، ولكن ربما يمكنك أن تجرب الاعتذار؟»

قال الملك: «أفترض أنك تقصدين الاعتذار لأختي الكبرى؟»

قالت الملكة: «أجل.»

قال الملك: «حسنًا، ليس لدي مانع.»

وهكذا ذهب في الصباح التالي إلى بيت أخته الأميرة، وأبدى إليها اعتذاره في تواضعٍ شديد، متوسلًا لها أن تبطل عمل تعويذتها. ولكن الأميرة أخبرته ـ بملامحَ جادة ـ أنها لا تعرف أي شيء على الإطلاق عن هذا الأمر. ولكن عينيها برقتا بلونٍ وردي، وهي علامة على كونها سعيدة. ونصحت الملك والملكة أن يتحليا بالصبر، وأن يصلحا من أفعالهما. عاد الملكُ مفطورَ القلب، وحاولت الملكة أن تواسيه قائلة: «سننتظر حتى تكبر، ربما تكون حينها قادرةً على اقتراح شيء بنفسها، ستصف على الأقل ما تشعر به، وتشرح لنا الأمور.»

صاح الملك: «ولكن ماذا لو أردنا أن نزوجها؟» فقد أحس بذعرٍ مفاجئ عندما راودته الفكرة.

سألته الملكة: «حسنًا، ماذا في ذلك؟»

قال الملك: «فكري في الأمر! إذا أنجبت أطفالًا! في غضون مئة عام قد يمتلئ الهواء بأطفالٍ محلقين كأوراق الشجر في فصل الخريف.»

قالت الملكة: «هذه ليست مشكلتنا، كما أنهم بحلول هذا الوقت سيكون عليهم تعلم الاعتناء بأنفسهم.»

لم يجبها الملك سوى بتنهيدة عميقة.

سيكون عليه أن يتشاور مع أطباء البلاط، ولكنه كان يخشى من أن يخضعوها لتجاربهم.

***

إنها تضحك أكثر من اللازم

في تلك الآونة، على الرغم من الحوادث الغريبة، والحزن الذي جلبته على والديها، كانت الأميرة تضحك وتكبر، لم تصر بدينة ولكن ممتلئة الجسد وطويلة القامة. وصلت إلى عمر السابعة عشر دون أن تقع في ورطة أسوأ من وقوعها في المدخنة، ونال الفتى المتشرد الصغير الذي أنقذها من ذلك الشهرة ووجهًا ملطخًا بسخام المدخنة الأسود. ورغم طيشها لم ترتكب أيَّ شيءٍ أسوأ من الضحك في وجه أيِّ شخص أو أيِّ شيء يقع في طريقها. عندما أخبروها ـ على سبيل التجربة ـ أن الجنرال «كلانرنفورت» قد مُزِّق إربًا مع جنوده، ضحكت، عندما سمعت أن العدو في طريقه لمحاصرة عاصمة أبيها، ضحكت بشدة، ولكن عندما أخبروها أن المدينة ستقع بالتأكيد تحت رحمة جنود العدو، تحيرت ثم ضحكت بشكلٍ مفرط. لم يقدر أحدٌ على الإطلاق على حملها على رؤية الجانب الجاد لأي شيء.

عندما بكت أمها قالت:

«يا لها من تعابيرَ مضحكة هذه التي تصنعها ماما بوجهها! أتخرج الماء من وجنتيها؟ ماما مضحكة!»

وعندما انفجر أبوها غضباً في وجهها، ضحكت، ورقصت وهي تدور حوله وصفقت بيديها، ثم صاحت:

«افعلها مجددًا يا بابا. افعلها مجددًا! هذا مسلي للغاية! بابا حبيبي مضحك!»

وإذا حاول أن يمسك بها، كانت تحلق مبتعدة عنه على الفور، دون أدنى خوف منه، ولكنها تعتقد حينها أنَّ هذا جزءٌ من اللعبة وهو ألا يمسك بها.

بدفعة واحدة من قدمها كانت تحلق في الهواء فوق رأسه؛ أو ترقص جيئة وذهابًا في كل الاتجاهات، كفراشة عظيمة. حدث هذا مَرَّات عديدة، عندما يكون أبوها وأمها يتناقشان بشأنها على انفراد، وفجأة تقاطعهما ضحكاتٌ عابثةٌ مكتومةٌ من فوق رأسيهما؛ وعندما ينظران لأعلى في سخط يجدانها تحلق في الهواء أعلاهما بكامل هيئتها، حيث تراقبهما وهي في أوضاع هزلية للغاية.

ذات يوم وقعت حادثةٌ غريبة. خرجت الأميرة إلى الحديقة بصحبة واحدة من الحاشية، والتي كانت تمسك بيدها. لمحت الأميرة أباها على الجانب الآخر من الحديقة، فانتزعت يدها من يد

الخادمة، وأسرعت ناحيته. حينها كانت العادة عندما ترغب في الركض وحدها هي أن تمسك بحجر في كل يدٍ من كلتا يديها، لكي تستطيع الهبوط مجددًا بعد كل قفزة. لا يكون لما ترتديه ـ أيًّا كان ـ تأثير عليها، حتى الذهب، فعندما ترتديه يصير جزءًا منها، يفقد كل وزنه في ذلك الوقت. لكن ما تمسك به في يديها ـ أيًّا كان ـ يحتفظ بتأثره بالجاذبية. في تلك المرة لم تجد ما تمسك به سوى ضفدع ضخم، كان يقطع الحديقة على مهلٍ كأن أمامه مئة عام ليفعل ذلك فيها. لم تكن الأميرة تعرف ما هو الاشمئزاز، كان ذلك ضمن طباعها الغريبة، فأمسكت بالضفدع في حركة خاطفة وقفزت مبتعدة.

كادت أن تصل إلى أبيها، وكان هو يمد ذراعيه ليتلقاها بينهما، وليتلقى القبلة التي أطلت من شفتيها كفراشة تقف على برعم زهرة، عندما هبت نفخة رياح ودفعتها جانبًا بين ذراعيّ خادم شاب كان جلالة الملك قد أرسل في طلبه منذ قليل. حينها كان من ضمن صفات الأميرة الغريبة أنها إذا شرعت في فعل شيء فإنها تحتاج وقتًا لتدارك نفسها وتتكبد في ذلك مشقةً. في تلك الحادثة لم يكن هناك وقتٌ كافٍ. كانت قد هيأت نفسها للتقبيل، فقلبت الخادم الشاب. لم يزعجها ذلك كثيرًا، فالخجل لم يكن ضمن تركيبتها، وكانت تعرف ـ علاوة على ذلك ـ أنها لا تستطيع منع نفسها. لذا لم تفعل شيئًا سوى أن ضحكت، كصندوق موسيقي.

أما الخادم فكان أسوأ حالًا، فالأميرة في محاولتها لتصحيح الاتجاه غير الملائم للقبلة، مدت يدها لتبقي نفسها بعيدةً عن الخادم، لذا بجانب القبلة تلقى على الخد الآخر صفعة بضفدع أسود ضخم، والذي نكره مباشرةً في عينه. حاول أن يضحك أيضًا، ولكن محاولته أسفرت عن التواء غريب في ملامحه، كما أظهرت أنه لم يشعر بفداحة فعلته ولم يبالِ بتباهيه بالقبلة. أما الملك فقد أحس بجرحٍ عميق في كرامته، ولم يتحدث مع الخادم لشهرٍ كامل.

ربما يجب عليّ هنا ذكر أنه من المسلي للغاية رؤيتها تركض، هذا إن كان طريقتها في الحركة يُمكن أن يُطلَقَ عليها ركضًا بالشكل المعتاد. فهي تقفز أولًا، وبعدما تهبط أرضًا تركض بضع خطوات، ثم تقفز مجددًا. أحيانًا يُخَيَّلُ لها أنها قد لمست الأرض قبل أن تصل إليها بالفعل، فتحرك قدماها جيئةً وذهابًا وهي تركض فوق الفراغ، كالدجاجة عندما تقع على ظهرها. وحينها تضحك كأنما هي روح المرح ذاته، ولكن كان هناك شيءٌ مفقود في ضحكها عندما تضحك، أجد نفسي عاجزًا عن الوصف. أعتقد أن المفقود هو نبرة معينة في الضحك، تخبرنا بإمكانية وجود الحزن، ربما لأن ضحكها لم يحمل ذرةً واحدة من ذلك الحزن. ربما لأنها كانت تضحك ولكنها لم تبتسم قط.

***

جرّب الميتافيزيقيا

بعد وقتٍ طويل من التهرب من هذا الموضوع المؤلم، عزم الملك والملكة على عقد مجلس ثلاثي للتشاور في الأمر، وهكذا أرسلا في استدعاء الأميرة، التي جاءت وهي تنزلق وتحلق وتطير من قطعة أثاث لأخرى، وأخيرًا استقرت في كرسي وثير، متخذة وضع الجلوس. هذا إن أمكن أن يقال إنها تجلس؛ لا أستطيع الجزم بذلك، فلا يمكن رؤيتها تتلقى أيَّ دعم من الكرسي.

قال الملك: «طفلتي الحبيبة، لا شك أنكِ بحلول هذا الوقت قد أدركتِ أنكِ لستِ كبقية البشر تمامًا.»

قالت الأميرة: «أنت مضحك يا بابا الحبيب! لديّ أنفٌ، وعينان، وكُلُّ الأشياء الأخرى. وأنت كذلك. وكذلك ماما.»

قالت الملكة: «كوني جادة ولو لمرةٍ واحدة يا حبيبتي.»

قالت الأميرة: «لا، شكرًا لكِ ماما، أفضل ألا أكون كذلك.»

قال الملك: «ألا ترغبين في أن تكوني قادرة على المشي مثل بقية البشر؟»

قالت الأميرة: «لا، بالطبع لا أرغب في ذلك على الإطلاق، أنتم فقط تزحفون مثل الصراصير البطيئة!»

ظهر الانهزام على وجه الملك فصمت لوهلة، ثم استأنف حديثه قائلًا: «كيف تشعرين يا طفلتي؟»

قالت الأميرة: «أنا بخير، شكرًا لك.»

قال الملك: «أعني الشعور الذي ينتابك، ماذا يشبه؟»

قالت الأميرة: «لا يشبه أي شيء أعرفه على الإطلاق.»

قال الملك: «لا شك أنك تشعرين بشيءٍ ما.»

قالت: «أشعر كأيّ أميرة لها بابا مضحك، وطفلة مدللة لماما الملكة.»

تدخلت الملكة في الحديث قائلة: «حقًّا بربك!»

ولكن الأميرة قاطعتها على الفور قائلة: «أوه، أجل، تذكرت. ينتابني أحيانًا إحساسٌ غريبٌ، كأنني الإنسان الوحيد الذي لديه أيُّ منطقٍ في هذا العالم بأسره.»

كانت تحاول طيلة الوقت أن تحافظ على وقارها، ولكنها انفجرت في نوبة ضحك عنيفة، فألقت نفسها للوراء من فوق الكرسي، وتدحرجت على الأرض في مرجٍ هستيري. حملها الملك بجهدٍ يسير أقل من الجهد الذي قد يبذله المرء لرفع اللحاف من على فراشه، وأجلسها في موضعها السابق على الكرسي. لا أعرف التعبير الدقيق لوصف هذا الحدث.

كان الملك قد أدرك أنه لا فائدة من الغضب في وجهها، فاستأنف حديثه قائلًا: «ألا يوجد شيءٌ تتمنينه؟»

أجابته الأميرة: «أجل يا بابا الحبيب، أجل.»

سألها الملك: «ما هو يا قُرَّةُ عيني؟»

قالت: «هو شيءٌ أشتاق إليه، منذ الليلة الماضية.»

قال لها: «أخبريني ما هو؟»

سألته الأميرة: «هل تعدني أنك ستسمح لي بأن أناله؟»

كان الملك على وشك أن يقول «أجل»، ولكن الملكة الأكثر حصافةً منه أومأت له برأسها ليتروى، فقال: «أخبريني أولًا ما هو.»

قالت: «لا، لا، عدني أولًا.»

قال الملك: «لا أقدر على ذلك، ما هو؟»

قالت الأميرة: «كما تشاء، سألزمك بالوفاء بالوعد. الأمر هو.. أريد أن تربطوني في طرف خيط، خيط طويل للغاية بالطبع، وأن تطيروني مثل الطائرة الورقية. أوه، كم سيكون ممتعًا! سأسقط أمطارًا من ماء الورد، ووابلًا من السكاكر، وثلوجًا من الكريم المخفوق، و.. و.. و..»

عقدت نوبة من الضحك لسانها، وكادت أن تسقط مجددًا على الأرض، لولا أن هب الملك من موضعه وأمسك بها في الوقت المناسب.

أدرك الملك أنه لن يستطيع أن يستخلص منها سوى الثرثرة، فرن الجرس، وأرسلها خارجًا بصحبة اثنتين من الخادمات.

قال الملك مخاطبًا الملكة: «والآن ماذا يجب أن نفعل؟»

أجابته الملكة : «هناك حلٌ واحد، أن نستشير رابطة الميتافيزيقيين.»

صاح الملك: «اقتراحٌ رائع! فلننفذه على الفور.»

كان يرأس رابطة الميتافيزيقيين فيلسوفان صينيان حكيمان للغاية، يُدعيان «هَمْ ـ دْرَمْ» و«كُوبي ـ كِكْ». أرسل الملك في

طلبهما، فجاءا على الفور. وفي محادثةٍ طويلة أخبرهما بما يعرفانه بالفعل ـ ومن لا يعرف؟ ـ عن حالة ابنته الغريبة وعلاقتها بالكرة الأرضية التي تحيا عليها، وطلب منهما أن يتشاورا معًا لمعرفة ماذا يمكن أن يكون السبب، والعلاج المحتمل لهذه اللعنة. ثم قال لهما: «سأطير فرحًا إذا نجحتما في ذلك». ولكنه لم يشعر بالمفارقة الساخرة في كلماته، فضحكت الملكة على النكتة، ولكن «هَمْ ـ دْرَمْ» و«كُوبي ـ كِكْ» استمعا له في تواضعٍ والتزما الصمت.

تَرَكَّزَتِ المشاورة بشكلٍ أساسي على عرض كُلِّ واحد منهما لنظرياته المفضلة ـ التي طرحها ألف مرة من قبل ـ بما يدعمها من فرضيات. كانت حالة الأميرة تفتح مجالًا سارًا لمناقشة كل سؤال ينشأ عن انقسام الأفكار الميتافيزقية في الإمبراطورية الصينية. ولكن من المنصف القول إنهما لم يتجاهلا تمامًا مناقشة السؤال العملي، ما الذي يجب فعله.

كان «هَمْ ـ دْرَمْ» ماديًا، بينما «كُوبي ـ كِكْ» كان روحانيًا. كان الأولُ بطيئًا ويأخذ وقته للتفكير في الأمر من كل جوانبه، بينما كان الثاني سريعًا ويقفز دومًا إلى الاستنتاجات، يكون الثاني هو أول من يتكلم، بينما الأول يكون له الكلمة الأخيرة.

قال «كُوبي ـ كِكْ» في اندفاع: «أنا أؤكد على فرضيتي السابقة، لا يوجد أيُّ علة في الأميرة، جسدًا أو رُوحًا، الشيء الوحيد

الخاطئ هو وضعهما معًا. أنصت إلى يا «هَمْ ـ دْرَمْ» وسوف أخبرك بملخص ما أعتقده. لا تتكلم. ولا تُجِبني. فأنا لن أنصت إليك حتى أنتهي من حديثي. في تلك اللحظة الحاسمة، التي تبحث فيها الأرواح عن مساكنها المحددة، التقت روحان متحمستان، تصادمتا، ثم أفاقتا من الصدمة، وقد ضلتا طريقيهما، ووصلت كُلٌّ واحدةٍ منهما إلى المكان الخاطئ. رُوحُ الأميرةِ هي واحدةٌ من تلك الأرواح، وقد ضَلَّت طريقها بعيدًا عن عالمها. إنها قطعًا لا تنتمي إلى هذا العالم بأي حالٍ من الأحوال، ولكنها تنتمي إلى كوكبٍ آخر، هو عطارد على الأرجح. إنَّ نَزْعَتَها إلى كوكبِها الحقيقي تدمر كُلَّ تأثير طبيعي يملكه هذا الكوكب على جسدها المادي. إنها لا تأبه لأيِّ شيء هنا. لا توجد علاقة بينها وبين هذا العالم.

لذا يجب أنْ نعلِّمها ـ بالإكراه إن لزم الأمر ـ أن تهتمَ بالأرضِ كأنما هي كوكبها الأم. يجب أن تدرس كُلَّ قسم من أقسام تاريخها: تاريخ حيواناتها، وتاريخ نباتاتها، وتاريخ صخورها، وتاريخها الاجتماعي، وتاريخها الأخلاقي، وتاريخها السياسي، وتاريخها العلمي، وتاريخها الأدبي، وتاريخها الموسيقي، وتاريخها الفني، والأهم من كل ذلك تاريخها الميتافيزيقي. يجب أن تبدأ بسلالة الصين الحاكمة، وتنتهي باليابان. ولكن أولًا وقبل كل شيء يجب عليها دراسة الجيولوجيا، ولا سيما تاريخ الفصائل المنقرضة

من الحيوانات، وطبيعتهم، وسلوكهم، وما أحبوه، وما كرهوه، ودوافعهم للانتقام. يجب عليها...»

قال «هَمْ ـ دْرَمْ» بصوتٍ هادر: «مهلًا، مهلًا»، ثم أضاف: «لقد حان دوري في الحديث بالتأكيد، إن قناعتي الراسخة التي لن تتزحزح هي أن أسباب العلل الواضحة في حالة الأميرة هي أسباب مادية فقط لا غير، ولكن هذا لا يعني أكثر من الاعتراف بوجودها. اسمعوا رأيي، لسببٍ أو لآخر ـ لا يهمنا الآن معرفته في تشخيص حالتها ـ فإن حركة قلبها قد عُكست. هذا المزيج الاستثنائي من قوتيّ الشفط والضخ يعمل بشكلٍ معكوس، أعني أن سبب حالة الأميرة المؤسفة: أن القلب يشفط من حيث يجب أن يضخ، ويضخ حيث يجب أن يشفط. هناك خلل في حجرات الأذينين والبطينين، ويُرْسَل الدم من خلال الأوردة ويعود من خلال الشرايين، وبناءً على ذلك فهو يتدفق في الاتجاه الخاطئ عبر كل أعضائها البدنية، الرئتين وما إلى ذلك. فهل من الغريب إذن ـ باعتبار أن التشخيص صحيح ـ أن تكون خواص الجاذبية بدورها مختلفة عن الطبيعة البشرية؟ اقتراحي للعلاج هو: ـ

فَصْدُ دمائها إلى أقصى درجة تتحملها والتي تصير بعدها حياتها في خطر، ثم نترك الدم يجري ـ إن دعت الضرورة ـ في حمامٍ دافئ. وعندما تصل إلى حالة الاختناق التام، نضع رباط على الكاحل

الأيسر، ونحكم تضييقه قدر احتمال العظم. ونضع في الوقت ذاته ضغطًا مكافئًا حول الرسغ الأيمن. وباستخدام ألواح مهيأة لهذا الغرض، نضع القدم الأخرى واليد الأخرى أسفل مستقبلات مضختيّ هواء. ونشغل المستقبلات، ونضع نصف لتر من البراندي الفرنسي، وننتظر النتيجة.»

قال «كُوبي ـ كِكْ»:

«تقصد النتيجة التي ستأتي على الفور في صورة موتٍ مروع.»

قال «هَمْ ـ دْرَمْ»:

«إن حدث ذلك، فستكون قد ماتت أثناء تأدية واجبنا.»

ولكن الملك والملكة كانا يكّان حبًا جمًا ناحية طفلتهما غريبة الأطوار مما لا يسمح لهما بإخضاعها لأي حيلة من حيل الفيلسوفين المجردين من المشاعر. في الحقيقة، إن أكثر أنواع المعرفة كمالًا بقوانين الطبيعة لن تكون ذات نفعٍ في حالتها، فقد كان من المستحيل تصنيفها. إنها عنصر خامس غير محسوس، يتشارك كل خصائص العناصر الأربعة الأخرى المحسوسة.

***

جرَبَ قطرة ماء .

ربما أفضل شيء يمكن أن يحدث للأميرة هو أن تقع في الحب، ولكن من الصعب على أميرة بلا جاذبية أن تقع في أيِّ شيء؟ بل ربما هذا هو الأمر الأصعب!

أما عن مشاعرها حيال الأمر، فهي لم تكن تعرف أن هناك خلية نحل لتقع فيها فتنال منها العسل اللذيذ أو ينالها اللسعات المؤلمة. ولكن الآن يجب عليّ ذكر حقيقة أخرى غريبة عن الأميرة.

كان القصر مبنيًّا على ضفاف أجمل بحيرة في العالم، وكانت الأميرة تحب هذه البحيرة أكثر من أبيها وأمها. وكان سبب هذا التفضيل ـ رغم أن الأميرة لا تعرف ذلك ـ هو أنها عندما تذهب إلى هناك تستعيد حقها الطبيعي الذي سُلب منها بطريقةٍ شريرة، ألا وهو الجاذبية. ربما يكون هذا قد نجم عن حقيقة أنَّ الماء قد

استخدم كوسيلة لنقل الضرر، لا أعرف، ولكن الحقيقة المؤكدة هي أنها تستطيع أن تسبح وتغطس كالبطة كما وصفتها مربيتها العجوز. أما عن الطريقة التي اكْتُشِفَ بها هذا الأمر الذي يخفف من محنتها فكانت كالتالي.

ذات أمسية صيفية، أثناء الكرنفال الذي يجوب البلاد، كانت الأميرة قد ذهبت إلى البحيرة بصحبة الملك والملكة، في القارب الملكي. وكان برفقتهم العديد من الحاشية في أسطول من القوارب الصغيرة. وفي منتصف البحيرة أرادت أن تذهب إلى قارب قاضي القضاة، فابنته ـ المحببة إلى قلبها ـ كانت معه في قاربه. ومع أن الملك نادرًا ما يمزح بشأن حالة بنته، إلا أنه في هذه المناسبة كان في حالة مزاجية مرحة، وبينما كان القاربان يقتربان من أحدهما الآخر، أمسك بالأميرة ليلقي بها إلى قارب قاضي القضاة، في تلك اللحظة فقد توازنه وسقط على أرضية القارب، ولكنه لم يترك الأميرة قبل أن ينقل إليها قوة الدفع لأسفل ولكن في اتجاه مختلف، فسقط الملك في القارب بينما سقطت هي في الماء، ثم انفجرت في ضحكٍ مرح قبل أن تختفي في البحيرة.

تصاعدت صرخة رعب من القوارب، فهم لم يروا الأميرة تغرق في البحيرة من قبل، في لحظة واحدة قفز نصف الرجال إلى الماء ولكنهم عادوا إلى السطح مجددًا واحدًا تلو الآخر ليلتقطوا

أنفاسهم، عندها جاء صوت ضحك الأميرة فوق سطح الماء من مكانٍ بعيد، هنالك كانت تسبح مثل البجعة.

رفضت في عنادٍ تام الذهاب إلى الملك أو الملكة أو قاضي القضاة أو ابنته، ولكنها في الوقت ذاته بدت هادئة أكثر من أي وقتٍ مضى، ربما لأن البهجة العظيمة سلبتها الرغبة في الضحك. صار شغف حياتها في كل المناسبات التالية هو أن تذهب إلى الماء، فقد كانت دومًا أفضل سلوكًا وأكثر جمالًا كلما ذهبت إلى البحيرة. لا فارق بين الصيف أو الشتاء، الفارق الوحيد هو أنها لا تمكث طويلاً في الماء عندما يضطرون لكسر الجليد للسماح لها بالوصول إلى الماء.

يمكنك أن تراها في أي يوم من الصباح حتى المساء في الصيف كلمحةٍ بيضاء في البحيرة الزرقاء مستلقية في سكونٍ كظل سحابة، أو تتقافز على سطح الماء كالدرافيل، أو تغطس لتختفي أسفل الماء ثم تبزغ مجددًا بعيدًا من حيث لا تتوقعها. لو كان الأمر بيدها لذهبت إلى البحيرة في الليل أيضًا، فإن شرفة نافذتها تطل على بركة عميقة، ويمكنها أن تسبح عبر القناة المائية الضحلة التي ينمو القصب على ضفتيها يمكنها حتى تصل إلى البحيرة الواسعة دون أن يشعر بها أحد. كان هذا الشعور يراودها بقوة بالفعل عندما تستيقظ في ضوء القمر ولكن كانت تشعر برهبة من فعل ذلك، فقد كانت تشعر

بخوفٍ عظيم من الهواء كالخوف الذي ينتاب بعض الأطفال من الماء، فإن أقل هبّة هواء قد تدفعها بعيدًا، والرياح قد تهب فجأة حتى في أكثر لحظات الهواء سكونًا، إذا دفعت نفسها لأسفل ناحية الماء وفشلت في الوصول إليه، فسيكون موقفها حرجًا بشكلٍ مرعب، فبصرف النظر عن الرياح، ففي أحسن الأحوال ستظل معلقة في الهواء بثياب نومها حتى يراها أحدهم من النافذة.

قالت لنفسها وهي تتأمل الماء: «ليتني أمتلك جاذبيتي، كنت حينها سأندفع من الشرفة كبجعة بيضاءٍ طويلة لأغطس برأسي في المياه الجميلة».

كان هذا هو السبب الوحيد الذي يجعلها أحيانًا تتمنى أن تكون مثل بقية البشر.

السبب الآخر لولعها بالماء هو أنها لا تشعر بأي حرية سوى هناك، فهي لا تستطيع أن تمشي من دون أن يصحبها أحد من الحاشية، وهذا يتضمن أحيانًا فرقة من الخيَّالة خوفًا من أن تهب الرياح وتحملها في طريقها، وكان الملك يزداد قلقًا بمرور السنوات حتى وصل الأمر إلى أنه لم يعد يسمح لها بالسير خارج القصر دون ربطها بقرابة عشرين حبلًا حريريًّا في أماكن متفرقة في ردائها، ويمسك بالحبال عشرون رجلًا، وكان ركوب الخيل مستبعدًا تمامًا بالطبع، ولكنها كانت تتخلص من كل تلك القيود عندما تذهب إلى الماء.

كان لهذا آثار ملحوظة عليها، وخصيصًا استعادتها للجاذبية البشرية الطبيعية لبعض الوقت، حتى أن «هَمْ ـ دْرَمْ» و«كُوبي ـ كِكْ» قد اتفقا على توصية الملك بدفنها حية لثلاث سنوات على أمل أنه كما نفعها الماء كثيرًا فسيكون للأرض نفعٌ أكبر، ولكن الملك رأى أن هذه التجربة فَظَّة ولم يوافق عليها، وبعد فشلهما في ذلك الاقتراح اتفقا على اقتراحٍ آخر، وكان هذا أمرًا استثنائيًّا حقًّا لأن أحدهما يستقي آراءه من الصين والآخر من التبت، لقد عرضا فرضيتهما قائلين إنه إن كان الماء من مصدر خارجي له مثل هذا الأثر الكبير فإن ماءً من مصدر داخلي قد يكون هو العلاج المثالي، باختصار إذا أمكن بطريقة أو بأخرى جعل الأميرة المسكينة تبكي فقد تستعيد جاذبيتها المفقودة.

ولكن كيف يمكن تنفيذ ذلك؟ فهنالك تكمن كل الصعوبة التي لا يستطيع أحد التغلب عليها، حتى الفلاسفة ليسوا حكماء بما يكفي، فَجعلُ الأميرة تبكي مستحيلٌ تمامًا كجعلها تكتسب ثقلًا. أرسلوا في طلب شحاذ محترف وطلبوا منه أن يجهز أكثر توسلاته التي يستجدي بها عطف الناس رثاءً وبؤسًا، وألبسوه ما يصلح لتلك المهمة، ووعدوه بمكافأة عظيمة في حالة نجاحه، ولكن كان الأمر بلا طائل، لقد استمعت إلى قصة الفنان المتسول وحدقت إلى

تصنعه المذهل حتى لم تعد قادرة على كبح جماح نفسها، فانفجرت في نوبةٍ من الضحك الهيستيري الصارخ.

عندما تمالكت نفسها قليلًا أمرت حاشيتها أن يطردوه دون أن يعطوه عملة نحاسية واحدة، وكأنما لينتقم القدر له فقد تسببت نظرة الذل والانكسار في عينيه في دخولها في حالة هيستيرية عنيفة من الضحك، وجدت صعوبة في تمالك نفسها منها.

ولكن الملك كان حريصًا للغاية على أن يمنح الاقتراح فرصة كافية، فتصنع الغضب الشديد ذات يوم واقتحم غرفتها وضربها بقسوة، ورغم ذلك لم تذرف دمعة واحدة، بدت جادة وبدا ضحكها كالصراخ بشكلٍ غير معتاد، ولكن كان هذا كل شيء، ورغم أن الملك العجوز قد ارتدى أفضل عويناته الذهبية لينظر إليها إلا أنه لم يستطع أن يرى أدنى أثر للدموع في عينيها الهادئتين الزرقاوين.

***

أعدني مجددًا

في مثل ذلك الوقت خرج ابن ملك يعيش على بعد ألف ميل من مملكة «لاجوبل» ليبحث عن ابنة ملكة، لقد ارتحل من أقصى الأرض إلى أدناها، ولكن كلما عثر على أميرة وجد فيها عيبًا ما، لا يمكنه بالطبع أن يتزوج امرأة من عَامَّةِ النَّاسِ مهما كانت جميلة، ولم يجد أميرة تجعله يشعر أنها جديرة به. لا يمكنني الزعم أن هذا الأمير قد اقترب من الكمال، حتى أنه استحق أن يطلب الكمال لنفسه، كل ما أعرفه هو أنه كان شابًّا جيدًا ووسيمًا وشجاعًا وكريمًا وأصيلًا ومهذبًا ككل الأمراء.

أثناء ترحاله وصلت إليه بعض الأخبار عن أميرتنا، ولكنها مسحورة كما قال الجميع، فلم يخطر على باله أبدًا أنها ستقدر على سحره، فماذا يفعل أمير بأميرة قد فقدت جاذبيتها؟ من يمكنه أن يعرف ما يمكن أن تفقده لاحقًا؟ فقد تفقد ظهورها أو ماديتها

أو بالأحرى القدرة على ترك أي انطباع على الحواس البشرية الأساسية فلا يقدر أحد أن يعرف إن كانت ميتة أم حية، بالطبع لم يستقصِ أكثر حولها.

ذات يوم اختفت حاشيته عن ناظريه في الغابة الواسعة. هذه الغابات مفيدة لتخليص الأمراء من حاشيتهم كالمنخل الذي يخلص الدقيق من النخالة، ومن ثم ينطلق الأمراء لملاحقة أقدارهم. في تلك الحالة يكون حالهم أفضل من الأميرات اللواتي يُجبرن على الزواج قبل أن يجدن فرصة للاستمتاع بحياتهن، أتمنى أن تضيع أميراتنا في الغابة في وقت ما.

ذات أمسية جميلة بعد التجول لعدة أيام أدرك أنه يقترب من أطراف تلك الغابة، فقد صارت الأشجار قليلة حتى أنه يستطيع رؤية غروب الشمس من خلالها، وسرعان ما وجد نفسه في أحد المروج، ثم لمح من بعيد آثار بلدة بشرية، ولكن الوقت كان قد صار متأخرًا ولم يكن هناك أحدٌ في الحقول ليدله على الطريق إليها.

بعد أن ارتحل لساعة أخرى كان حصانه قد ناله الإنهاك بسبب المجهود الشاق الطويل وقلة الطعام فسقط أرضًا ولم يقدر على النهوض مجددًا. وهكذا أكمل رحلته سيرًا على الأقدام. في النهاية وصل إلى غابة أخرى، ليست غابةً برية ولكن أشبه بحديقة مشذبة، كان يشقها طريق ممهد قاده إلى ضفة بحيرة. كان الأمير يتلمس

طريقه عبر الظلمة المتزايدة، فجأة توقف وأصغى السمع، كان هناك أصوات غريبة تأتي من ناحية الماء.

كان هذا في الواقع صوت ضحك الأميرة، كان هناك شيء غريب في ضحكتها كما ألمحتُ من قبل، فالضحكة الحقيقية التي تنبع من القلب يجب أن يغلفها احتمالية الحزن، ولعل هذا السبب هو ما جعل الأمير يفسر هذا الضحك خطأً على أنه صراخ، فنظر إلى البحيرة ورأي شيئًا أبيض في الماء. على الفور انتزع الأمير سترته وخلع حذاءه ثم قفز في الماء، سرعان ما وصل إلى الجسم الأبيض ليكتشف أنها امرأة، لم يكن هناك ضوء يكفي ليرى أنها أميرة، ولكن كان هناك ما يكفي ليعرف أنها فتاة، أنت لا تحتاج إلى الكثير من الضوء لترى ذلك.

لا أعرف كيف حدث ذلك ـ سواء تظاهرت بأنها غارقة، أو أنه قد أخافها، أو أنه قد أحكم الامساك بها بين ذراعيه ـ ولكن الشيء المؤكد هو أنه قد سحبها إلى الشاطئ بطريقة مهينة بالنسبة لسباحة ماهرة مثلها، كما أنها كادت أن تغرق أكثر من مرة، فالماء كان يدخل إلى حلقها كلما حاولت أن تتكلم.

كانت الضفة في المكان الذي سحبها إليه تعلو سطح الماء بقدمٍ أو اثنتين، لذا دفعها بقوة خارج الماء لتصل إلى الضفة، ولكنها

فقدت جاذبيتها في اللحظة التي خرجت فيها من الماء وارتفعت في الهواء وهي توبخه صارخة: «أنت رجل شرير، شرير، شرير، شرير».

لم ينجح أحد في جعلها تنفعل من قبل، وعندما رآها الأمير ترتفع في السماء ظن أنه قد وقع تحت تأثير سحر جعله يرى بجعة كبيرة على هيئة فتاة، ولكن الأميرة أمسكت بكوز أعلى شجرة صنوبر طويلة، إلا أنه انخلع في يدها فأمسكت بآخر، في الواقع لقد أوقفت نفسها بجمع كيزان الصنوبر وهي تسقطهم بمجرد أن يخلعوا في يدها، في هذه الأثناء كان الأمير واقفًا محدقًا إليها وقد نسي أن يخرج من الماء، ولكن بمجرد اختفاء الأميرة دفع نفسه إلى الشاطئ وسار في اتجاه الشجرة، وهناك رآها تتسلق هابطة على أحد الفروع ناحية الجذع، ولكن في ظلمة الغابة ظل الأمير يفكر في حيرة فيما تكون تلك الظاهرة الغريبة حتى وصلت إلى الأرض ورأته يقف هناك، فأمسكت به وقالت: «سوف أخبر بابا».

أجابها الأمير: «أوه لا، لا تفعلي».

قالت بإصرار: «بل سأفعل، ما شأنك أنت لتجذبني من الماء وتلقي بي إلى هاوية الفضاء؟ أنا لم أُسِئ إليكَ أبدًا».

قال الأمير: «المعذرة، أنا لم أقصد الإساءة إليكِ».

قالت الأميرة: «أنا لا أعتقد أن لديك أدنى عقل، هذه خسارة أسوأ من جاذبيتك البائسة، أنا أشفق عليك».

أدرك الأمير حينها أنه يقف أمام الأميرة المسحورة وأنه قد أثار استياءها بالفعل، ولكن قبل أن يفكر فيما يجب عليه قوله انفجرت غاضبة وهي تركل الأرض بقدمها، وكان من الممكن أن يقذف بها هذا إلى الهواء لولا أنها كانت تُمسك بذراعه.

قالت له: «أعدني على الفور».

سألها الأمير: «أعيدك إلى أين أيتها الجميلة؟».

كان قد وقع في حبها تقريبًا على الفور، فغضبها قد جعلها فاتنة أكثر من أي واحدة رآها من قبل، ولم يكن بها عيب واحد حسبما يرى، عدا بالطبع أنها لا تملك أي جاذبية، ولكن لا يجب على أي أمير أن يحكم على أميرة بوزنها، لا يمكن تقييم جمال قدمها بعمق الأثر الذي يمكن أن تتركه في الطين.

سألها الأمير مجددًا: «أعيدك إلى أين أيتها الجميلة؟».

أجابته الأميرة: «إلى الماء أيها الأحمق!».

ضاعفت حالة ردائها من صعوبتها المعتادة في المشي، مما دفعها إلى التشبث به، وبالكاد استطاع أن يقنع نفسه أنه ليس في حلم

مبهج أو في خضم تيار موسيقي تغمره به. لم يكن الأمير متعجِّلًا، لذا فقد وصل إلى البحيرة في مكان مختلف حيث كانت الضفة بارتفاع خمسة وعشرين قدمًا على الأقل، وعندما وصل إلى الحافة التفت إلى الأميرة وقال: «كيف يمكنني أن أعيدك؟».

أجابته الأميرة بحدة: «هذه هي مشكلتك، أنت من أخرجني، أعدني مجددًا».

قال الأمير: «كما تشائين».

ثم أمسك بها بين ذراعيه وركض بها ليقفز من فوق الصخرة، بالكاد وجدت الأميرة وقتًا لتطلق ضحكة عالية مبتهجة قبل أن يغمرهما الماء. عندما عادا إلى السطح وجدت أنها لوهلة أو اثنتين لا تستطيع أن تضحك، فهي قد سقطت بسرعة كبيرة حتى أنها استردت أنفاسها بصعوبة، بمجرد أن وصلا إلى السطح قال الأمير: «هل أعجبك السقوط؟».

قالت الأميرة بأنفاسٍ متقطعة: «أهذا ما تسمونه السقوط؟».

قال الأمير: «أجل، أعتقد أن هذا نموذج إيضاحي مقبول».

قالت له: «لقد بدا لي مثل الصعود لأعلى».

قال الأمير معترفًا: «لقد انتابني إحساس يشبه التحليق أيضًا».

لم يبدُ على الأميرة أنها فهمت ما يعنيه فقد كررت سؤاله: «هل أعجبك أنت السقوط؟».

أجابها: «أكثر من أي شيء، فقد سقطت مع المخلوق الوحيد المثالي الذي رأيته في حياتي».

قالت الأميرة: «لا مزيد من هذا، لقد تعبت منه».

ربما ورثت عن أبيها النفور من التلاعب بالكلمات.

سألها الأمير: «ألا تحبين السقوط إذن؟».

أجابته الأميرة: «إنه أكثر شيء ممتع فعلته في حياتي، أنا لم أسقط من قبل، أتمنى لو أستطيع تعلم ذلك، أعتقد أنني الشخص الوحيد في مملكة أبي الذي لا يستطيع السقوط».

حينها بدت الأميرة الصغيرة حزينة تقريبًا.

قال الأمير بإخلاص: «سأكون أسعد شخص بالسقوط معكِ في أي وقت تريدينه».

قالت الأميرة: «شكرًا لك، لا أعرف، قد يكون هذا غير لائقٍ، ولكن أنا لا أُبالي، على أيِّ حال لقد سقطنا بالفعل، إذن دعنا نسبح معًا».

أجابها الأمير: «على الرحب والسعة».

وهكذا راحا يسبحان ويغطسان ويطفوان حتى سمعا صيحات من على طول الشاطئ، ورأيا أضواءً تلمع في كل الاتجاهات، كان الوقت قد تأخر بالفعل، ولم يكن القمر ظاهراً.

قالت: «يجب أن أعود إلى البيت، أنا آسفة حقًّا، لقد كان هذا مبهجًا للغاية».

أجابها الأمير: «وأنا كذلك، ولكني سعيد لأن ليس لدي بيت لأعود إليه، على الأقل لا أعرف بالضبط أين هو».

قالت الأميرة: «أتمنى لو لم يكن لي بيت أيضًا، هذا أمرٌ سخيفٌ حقًّا، لديَّ فكرة عظيمة للإيقاع بهم جميعًا في حيلة، لمَ لا يستطيعون أن يتركوني؟ لمَ لا يثقون بي لقضاء ليلة واحدة في البحيرة؟ هل ترى هذا الضوء الأخضر هناك؟ هذه نافذة غرفتي، فلتسبح معي الآن إلى هناك في هدوءٍ شديد، وعندما نصل إلى أسفل الشرفة هناك، ادفعني لأعلى كما فعلت منذ قليل، سأكون حينها قادرة على الإمساك بالشرفة والدخول من النافذة، وهكذا سيظلون يبحثون عني حتى صباح الغد!».

قال الأمير بشجاعة ونبل: «سمعًا وطاعةً». ثم سبح معها بهدوءٍ شديد.

جازف الأمير بالسؤال: «هل ستكونين في البحيرة مساء الغد؟».

أجابته الأميرة بشكلٍ غريب بعض الشيء: «بالتأكيد. لا أعتقد ذلك. ربما».

ولكن الأمير كان ذكيًّا بما يكفي ليعرف أنه لا يجب أن يلح في الأمر أكثر من ذلك، وهمس في أذنها وهو يدفعها لأعلى: «لا تخبري أحدًا».

لم تُجبه الأميرة سوى بنظرة مشاكسة، كانت قد صارت بالفعل على ارتفاع ياردة فوق رأسه وبدت النظرة المرتسمة على وجهها كأنما تقول: «لا تخف، لن أُفسد هذا المرح بتلك الطريقة».

لقد كانت طبيعية تمامًا مثل البشر الآخرين عندما كانت في الماء، حتى أن الأمير استطاع بصعوبة أن يصدق عينيه وهو يراها ترتفع ببطء وتُمسك بالشرفة ثم تختفي عبر النافذة. التفت برأسه كأنما يتوقع أن يراها لا تزال بجانبه ولكنه كان وحده في الماء، وهكذا سبح بعيدًا بهدوء وراقب الأضواء وهي تطوف حول الشاطئ لساعات بينما الأميرة آمنة في غرفتها، بمجرد أن اختفت الأضواء خرج إلى اليابسة ليبحث عن سترته وسيفه، أخذ يفتش كثيرًا حتى عثر عليهما ثم دار حول البحيرة إلى الجانب الآخر، هناك كانت الغابة أكثر بَرِّيَّة والشاطئ يرتفع بشكلٍ حاد ناحية الجبال التي

تحيط بالبحيرة من كل الجوانب، وتنساب تيارات الماء الفضية من الجبال إلى البحيرة، من الصباح حتى المساء وطيلة الليل. سرعان ما عثر على موضع يستطيع منه أن يرى الضوء الأخضر في غرفة الأميرة، وحيث لا يوجد مخاطرة من أن يكتشفه أحد من الشاطئ المقابل حتى في ضوء النهار، كان كهفًا من نوعٍ ما في الصخور، حيث صنع لنفسه فراشًا من أوراق الشجر الذابلة واستلقى متعبًا للغاية حتى أن جوعه لا يستطيع أن يبقيه مستيقظًا، طيلة الليل كان يحلم بأنه يسبح مع الأميرة.

***

انظر إلى القمر

باكرًا في صباح اليوم التالي خرج الأمير ليبحث عن شيء يأكله، وسرعان ما عثر عليه في كوخ حطَّاب أمدَّه في الأيام التالية بكل ما يُعَدُّ ضروريًّا بالنسبة لأميرٍ شجاع، وطالما لديه ما يكفي لإبقائه على قيد الحياة في الوقت الحاضر فهو لا يفكر في احتياجات ليست موجودة بعد. كلما أحس بالقلق، نحَّى هذا الإحساس جانبًا، كما يليق بالأمير أن يفعل.

عندما عاد من إفطاره إلى كهفه الذي يراقب منه البحيرة، رأى أن الأميرة تسبح بالفعل في البحيرة يرافقها الملك والملكة اللذان عرفهما من تاجيهما، ويصحبهم عددٌ كبير في قوارب صغيرة جميلة ومظلات ملونة بكل ألوان قوس قزح وأعلام وأشرطة ملونة بألوان أكثر بكثير، كان يومًا مشرقًا للغاية وسرعان ما أحس الأمير بالاختناق من الحرارة وبدأ يشتاق إلى الماء البارد والأميرة

اللطيفة، ولكن كان عليه أن يتحمل حتى الشفق، فهناك العديد من الحاضرين على متن القوارب. لم تنفض هذه الحفلة الملونة إلا بعد غروب الشمس. بدأت القوارب تبتعد ناحية الشاطئ واحدًا تلو الآخر، يتبعون قارب الملك والملكة حتى تبقَّى واحدٌ فقط، هو على الأرجح قارب الأميرة، ولكنها لم ترغب في العودة إلى البيت بعد، وخُيِّلَ للأمير أنه يراها تأمر القارب بالذهاب إلى الشاطئ بدونها. على أيِّ حال أبحر القارب بعيدًا ولم يتبقَّ من كل تلك الصحبة المتألقة سوى ذرة بيضاء واحدة. بدأ الأمير يغني، وهذا ما غنَّاه:

أميرتي الحسناء،

كالبجعة البيضاء،

ارفعي ناظريك،

لتجلبي الضياء

لليلة الظلماء

بأمرٍ من عينيكِ.

بيدين من نور،

ومجاديفَ من بلور،

تبحر عبر الماء،

فيتناثر الرذاذ.

برقةٍ وهدوء،

تبحر عبر الماء.

من ورائها التيار،

يتدفق باستمرار،

أبيضُ كالسناء!

يقتفي أثرها،

ويسعى من أجلها

أبيضُ كالسناء!

تتشبث بها،

المياه الزرقاء؛

لا تفترق عنها،

ولكنها تتجدد،

بالرطوبة والنقاء،

كالقبلات من حولها.

ومن حولي يضطرب،

ماءٌ مكتئب،

فارقها بعد لقاء.

من أجلك أبتهج،

فأنتَ قد قبَّلتها،

قبل الفراق.

قبل أن ينهي أغنيته كانت الأميرة قد صارت أسفل المكان الذي يجلس فيه ونظرت إلى أعلى لتراه، لقد قادتها أذناها إليه.

قال الأمير وهو ينظر لأسفل: «هل ترغبين في السقوط أيتها الأميرة؟».

قالت الأميرة وهي تنظر لأعلى: «آها! ها أنت ذا! أجل، إذا تكرمت أيها الأمير».

قال الأمير: «كيف عرفتِ أنني أمير أيتها الأميرة؟».

قالت الأميرة: «لأنك شابٌّ لطيفٌ للغاية أيها الأمير».

قال: «اصعدي إذن أيتها الأميرة».

قالت: «فلتخرجني أيها الأمير».

انتزع الأمير وشاحه وغِمْدَ سيفِه وسترتَه ثم ربطهم معًا وأنزلهم لأسفل، ولكن الحبل كان قصيرًا فَحَلَّ عمامته وأضافها إلى البقية، ولكنه لم يكن طويلًا بما يكفي فأكملت صُرَّةُ نقوده المهمة، استطاعت الأميرة أن تمسك بِصُرَّةِ النقود وفي لحظة واحدة صارت بجواره. كانت هذه الصخرة أعلى من الأخرى، وعندما غاصا في الماء تناثر الماء بشكلٍ هائل، وأحست الأميرة ببهجة عظيمة وأخذا يسبحان في استمتاع.

ليلة تلو الأخرى التقيا وسبحا في البحيرة المظلمة الصافية، حيث أحس الأمير بسعادة غامرة حتى أنه كان أحيانًا يتخيل أنه يسبح في السماء بدلًا من البحيرة (ربما هذا لأن طريقة الأميرة في النظر للأمور قد أثرت عليه أو أنه بدأ يصير خفيف العقل)، ولكن عندما تحدث عن كونه في السماء ضحكت الأميرة كثيرًا من تلك الفكرة.

عندما ظهر القمر جلب إليهما سعادةً جديدة، بدا كل شيء غريبًا وجديدًا تحت ضوئه، مزيجًا من القِدَمِ والحداثة، ذابلًا ولكن لا ينزوي.

عندما اقترب القمر من الاكتمال، كانت واحدة من متعهما العظيمة هي أن يغطسا عميقًا في الماء ثم يلتفتا وينظرا لأعلى من خلال بقعة الضوء العظيمة التي تعلوهما، والتي تتلألأ وترتعش وتتماوج، وتتمدد وتنكمش وتبدو أنها ستتلاشى ثم تظهر مجددًا.

ثم يندفعان لأعلى عبر البقعة وهناك يريان القمر بعيدًا في السماء، صافيًا ومستقرًّا وباردًا وجميلًا للغاية في قاع حفرة أعمق وأكثر زرقة من بحيرتهما كما قالت الأميرة.

سرعان ما أدرك الأمير أنه بينما الأميرة في الماء تكون مثل البشر الآخرين، كما أنها لم تكن مندفعة في أسئلتها أو مقتضبة في إجاباتها عندما تكون في البحر على عكس ما تكون على الشاطئ. كما أنها لم تكن تضحك كثيرًا، وعندما تضحك تكون ضحكتها أكثر رقة، بدت أنها في الماء تكون أكثر اعتدالًا وأنوثة من خارجه.

ولكن الأمير الذي وقع في حبها حقًّا يوم وقع في البحيرة، عندما يتحدث إليها عن الحب كانت تنظر إليه وتضحك، وبمرور الوقت بدأت تنظر بحيرة كأنها تحاول أن تفهم ما يعنيه، ولكنها لم تقدر، ولكنها أدركت أنه كان يقصد شيئًا ما.

وبمجرد خروجهما من البحيرة كانت تتغير تمامًا، حتى أن الأمير كان يقول لنفسه: «إذا أردت أن أتزوجها فلا يوجد حل سوى ذلك، علينا أن نتحول إلى عريس بحر وعروسة بحر، ونعيش في الماء إلى الأبد».

***

فحيح!

تحول حب الأميرة للبحيرة إلى شغف، وصارت لا تطيق أن تقضي ساعةً واحدة خارجها.

تخيَّل إذن ذعرها عندما غاصت ذات ليلة مع الأمير لينتابها شك مفاجئ أن البحيرة ليست بمثل العمق الذي اعتادت عليه. لم يستطع الأمير أن يتخيل ما حدث. لقد اندفعت إلى السطح، ودون أن تنبس بكلمة واحدة سبحت بأقصى سرعتها ناحية الجانب الأعلى من البحيرة. لحق بها وهو يتوسل إليها لتخبره إن كان بها خطبٌ ما، أو إن كان أمر ما قد حدث. لم تُدِرْ رأسها أو تلتفت أدنى التفاتة إلى سؤاله. وصلت إلى الشاطئ وتحركت ببطءٍ بين الصخور وهي تتفحصها بدقة. ولكنها لم تكن قادرة على الوصول إلى نتيجة، فقد كان القمر صغيرًا للغاية، لذا لم تستطع أن ترى بشكلٍ جيد. وهكذا

التفتت وسبحت ناحية البيت دون أن تقول كلمة لتفسر سلوكها للأمير، الذي بدا أنها لم تعد حتى مدركة لوجوده. انسحب الأمير عائدًا إلى كهفه في حيرة وضيق.

في اليوم التالي لاحظت الأميرة أشياء أخرى ضاعفت من خوفها، رأت أن الضفاف جافة للغاية وأن الأعشاب على الشاطئ والنباتات المتسلقة على الصخور تذبل، وضعت علامات على الضفاف وتفحصتها يومًا تلو الآخر في كل اتجاهات الرياح، حتى صارت الفكرة المريعة واقعًا أكيدًا، سطح البحيرة ينخفض ببطء.

كادت الأميرة المسكينة أن تفقد الجزء الصغير الذي تملكه من العقل، كان من الفظيع لها أن ترى البحيرة التي أحبتها أكثر من أيِّ شيء حي تحتضر أمام عينيها، إنها تنحسر وتختفي ببطء. بدأت قمم الصخور التي لم تَرَها من قبل تظهر على عمق كبير في الماء الصافي، ولن يمضي وقت طويل حتى تصير الأحجار جافة في ضوء الشمس. كان من المخيف التفكير في أن الطين الذي سيمتد أمامها قريبًا سيجف ويتعفن ويمتلئ بالمخلوقات الجميلة الذي تلفظ أنفاسها الأخيرة بينما تدب الحياة في المخلوقات القبيحة، كأنما هي نهاية العالم، وكم ستكون الشمس حارة بدون أي بحيرة! لم تعد تحتمل

السباحة فيها أكثر من ذلك وبدأت تتجنبها. قال الناس إنها لن تعيش ساعةً واحدة بعد اختفاء البحيرة.

ولكنها لم تبكِ أبدًا.

نادى المنادي في كل أنحاء المملكة أن من يستطيع معرفة سبب انحسار البحيرة سيكافأ مكافأة ملكية. لجأ «هَمْ ـ دْرَمْ» و«كُوبي ـ كِكْ» إلى علومهما الفيزيقية والميتافيزيقية ولكن بلا فائدة، فحتى هما لا يستطيعان تخمين السبب.

كان الأمر في الحقيقة هو أن الأميرة العجوز هي أسُّ البلاء، فعندما سمعت أن ابنة أخيها قد وجدت المتعة في الماء أكثر من أي شيء آخر خارجه، أُصيبت بغضبٍ شديد ووبخت نفسها على هذه الهفوة التي بدرت منها، ثم قالت: «ولكني قريبًا سأعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، يجب أن يموت الملك والشعب من العطش، ستغلي أدمغتهم في جماجمهم قبل أن أخسر انتقامي».

ثم ضحكت ضحكة شرسة، حتى أن الشعر على ظهر قطتها السوداء قد انتصب في رعب.

بعدها ذهبت إلى صندوق قديم في غرفتها وفتحته لتأخذ منه ما بدا أنه قطعة من عشبٍ بحري جاف، ثم ألقتها في حوض ماء، وأضافت مسحوقًا ما إلى الماء وقلبته بيدها العارية وهي تتمتم بكلماتٍ لها صوتٌ شنيع ومعنى أكثر شناعة. ثم وضعت الحوض جانبًا وأخرجت من الصندوق حزمة كبيرة من مئات المفاتيح الصدئة التي صلصلت في يديها المرتجفتين. ثم جلست وبدأت تدهنها بالزيت. كان الماء يدور في الحوض بحركة بطيئة منذ أن توقفت عن تقليبه، ثم خرجت منه رأس أفعى رمادية ضخمة ونصف جسدها، ولكن الساحرة لم تنظر إليها وهي منشغلة بالمفاتيح. واصلت الأفعى الزحف خارجة من الحوض وهي تتلوى بجسدها جيئة وذهابًا بحركة أفقية، حتى وصلت إلى الأميرة، ووضعت رأسها على كتفها وأصدرت فحيحًا خافتًا في أذنها فجفلت، ولكن في بهجة، ورأت الرأس تستقر على كتفها فقربتها منها وقبلتها، ثم أخرجتها كلها من الحوض ولَفَّتْها حول جسدها. كانت واحدة من تلك المخلوقات المخيفة التي لم يرها من قبل سوى قلة من الناس، إنها أفاعي الظلام البيضاء.

ثم أخذت المفاتيح وهبطت إلى القبو، وبينما هي تفتح الباب قالت لنفسها: «هذا أمرٌ يستحق أن يحيا المرء من أجله!».

أغلقت الباب وراءها وهبطت بضع درجات إلى داخل القبو، وقطعته لتفتح بابًا آخر في ممر ضيق مظلم، أغلقته أيضًا وراءها وهبطت بضع درجات أخرى. إذا تتبع أحدهم الأميرة الساحرة، فسيسمعها تفتح بالضبط مئة باب وتهبط بضع درجات بعد أن تفتح كل واحد منها. عندما فتحت آخر باب، دخلت إلى كهفٍ واسع سقفه مدعوم بأعمدة ضخمة طبيعية من الصخر، وكان هذا السقف أسفل قاع البحيرة.

حلَّت الأفعى من حول جسدها وأمسكتها من ذيلها ورفعتها عاليًا فوق رأسها، مدت الأفعى الشنيعة رأسها ناحية سقف الكهف، واستطاعت بالكاد أن تصل إليه، ثم بدأت تحرك رأسها للأمام والخلف بحركة متأرجحة بطيئة كأنما تبحث عن شيء ما، في الوقت ذاته بدأت الساحرة تدور وتدور في الكهف، ومع كل دورة كانت تقترب من المركز، بينما رأس الأفعى تقطع المسار ذاته بالأعلى في السقف كما تفعل هي على الأرض، فهي لم تتخلَّ عن الإمساك بالأفعى لحظةً واحدة، ظلَّتا تدوران وتدوران في

الكهف، والدائرة تضيق حتى وثبت الأفعى فجأة وأنشبت فمها في السقف.

صاحت الأميرة: «أحسنتِ يا جميلتي، استنزفيها حتى تجف».

ثم أرخت قبضتها عنها وتركتها معلقة، وجلست فوق حجرٍ عظيم بصحبة قطتها السوداء التي تبعتها في كل أرجاء الكهف دون أن تفارقها. ثم بدأت تحيك وتتمتم بكلماتٍ فظيعة، وتعلقت الأفعى كعَلَقَةٍ عملاقة تمتص عبر الصخور، بينما القطة تقف وظهرها مقوسٌ وذيلها كحبلٍ أسودَ غليظ، تنظر لأعلى محدقة إلى الأفعى، والمرأة العجوز جالسة، تحيك وتتمتم.

مرَّت سبعة أيام وسبع ليالٍ وهم على هذه الحالة، قبل أن تسقط الأفعى فجأة من السقف كأنما قد أُنهكت، ثم ذبلت حتى صارت مجددًا كقطعةٍ من عشبٍ بحريٍّ جاف. وقفت الساحرة على قدميها والتقطتها ووضعتها في جيبها ثم نظرت لأعلى ناحية السقف، كان هناك نقطة ماء واحدة ترتعش في البقعة التي كانت الأفعى تمتص منها. بمجرد أن رأت ذلك استدارت على عقبيها وهربت تلحق بها القطة. أغلقت الباب في عجالةٍ شديدة، ثم أقفلته بالمفتاح، وتمتمت ببعض الكلمات المخيفة، قبل أن تسرع إلى الباب

التالي الذي أقفلته وتمتمت عليه، وهكذا مع كل الأبواب المئة حتى وصلت إلى قبوها، ثم استلقت أرضًا وأوشكت على الإغماء، ولكنها أنصتت بفرحةٍ خبيثة إلى تدفق الماء، الذي كانت تستطيع أن تسمعه بوضوح عبر كل الأبواب المئة.

ولكن هذا لم يكن كافيًا، الآن وقد ذاقت طعم الانتصار لم تعد قادرة على الصبر، ودون المزيد من التدابير ستأخذ البحيرة وقتًا طويلًا حتى تختفي. لذا في الليلة التالية ومع بزوغ ضوء آخر شظية من القمر العجوز المحتضر أخذت بعض الماء الذي أنعشت الأفعى فيه ووضعته في زجاجة ثم خرجت تصحبها قطتها. قبل حلول الصباح كانت قد دارت دورة كاملة حول البحيرة وهي تتمتم بكلماتٍ مخيفة بينما تقطع كل جدول صغير وتصب فيه بعض الماء من زجاجتها، وعندما أنهت الدائرة، تمتمت مجددًا وهي تلقي بحفنة من الماء ناحية القمر. وعلى إثر ذلك توقف كل نبعٍ في المملكة عن الخفقان والتدفق وبدأ يحتضر كنبض رجلٍ موشك على الموت. في اليوم التالي لم يكن هناك أدنى صوت لتساقط المياه في كل حدود البحيرة، وكانت المسارات كلها جافة، ولم تُظهر الجبال أدنى أثر للتيارات الفضية التي كانت تتدفق من جوانبها، ولم تتوقف ينابيع

الأرض وحدها عن الجريان، فكل الأطفال في أنحاء المملكة كانوا يبكون بشكلٍ فظيع، ولكن بلا دموع.

***

أين الأمير؟

لم يتحدث الأمير مع الأميرة ولو لمرة واحدة منذ آخر ليلة عندما تركته الأميرة فجأة. لقد رآها مرة أو اثنتين في البحيرة، ولكنها حسب معرفته لم تعد تذهب إليها في المساء، لقد جلس وغنى وبحث عبثًا عن حورية البحر التي أحبها، ولكنها كحورية البحر الحقيقية كانت تزوي مع بحيرتها وتنحسر مع انحسارها، وتذبل بينما البحيرة تجف.

عندما أدرك أخيرًا التغير الذي طرأ على منسوب الماء أحس بانزعاج وحيرة عظيمين، لم يكن يعرف إن كانت البحيرة تحتضر لأن الأميرة قد هجرتها، أم أن الأميرة لم تعد تأتي لأن البحيرة قد بدأت تنحسر، ولكنه عزم على معرفة ذلك على الأقل.

تنكر وذهب إلى القصر وطلب رؤية حاجب الملك، كانت هيئته هي السبب في تلبية طلبه على الفور، ولأن الحاجب كان رجلًا فطنًا فقد خمَّن أن هناك غرضًا آخر وراء التماس الأمير غير ما قاله بالفعل، ولكنه أحس أيضًا أنه لا أحد يعرف من أين قد يأتي الحل للمشكلات التي تواجههم، فقَبِلَ تلبية طلب الأمير بأن يصير ماسح أحذية الأميرة، كان ذكاءً من الأمير أن يطلب مثل هذا المنصب السهل، فلا يمكن أن تُفسد الأميرة عددًا كبيرًا من الأحذية مثل الأميرات الأخريات.

سُرعان ما عرف كُلَّ ما يُمْكِنُ أنْ يُقالَ عَنِ الأميرةِ، ثم انشغل بالتجول حول البحيرة لأيامٍ، والغطس في كل عُمقٍ تبقَّى منها، كل ما استطاع فعله هو أن يضع طبقةً أخرى من الوَرنيش على حذاءٍ رقيقٍ آخر دون أن يطلب منه أحدٌ ذلك.

فالأميرة قد بقيت في غرفتها وقد أغلقت ستائرها لكيلا ترى البحيرة المحتضرة، ولكنها لم تستطع أن تُغلق عقلها للحظة واحدة. لقد احتل الأمر مخيلتها حتى أحست أن البحيرة هي رُوحها، تنحسر معها أولًا إلى الطين ثم إلى الجنون والموت. وهكذا ظلت تفكر في التغيير الذي طرأ مع كل تبعاته المخيفة، حتى كادت أن تفقد عقلها. أما الأمير فقد نسيت أمره تمامًا، مهما كان مقدار المرح

الذي أحست به بصحبته في البحيرة فهي لا تبالي به بدونها، كما بدا أنها نسيت أباها وأمَّها أيضًا. واصلت البحيرة الانحسار فبدأت تظهر بقعٌ موحلةٌ صغيرة لمعت بثبات بين بريق الماء المتغير، وهذه البقع الصغيرة كبرت لتصير رُقَعًا واسعة من الطين أخذت تتسع لتنتشر مع ظهور الصخور هنا وهناك، والتي اكتظت بأسرابٍ من الأسماك المتخبطة وثعابين الماء الزاحفة وذهب الناس إلى كل مكان للإمساك بتلك الأسماك والبحث عن أي شيء يكون قد سقط من القوارب الملكية.

في النهاية اختفت البحيرة كلها ولم يعد باقيًا سوى البِرَكِ الأعمق التي لم تستنزف.

حدث ذات يوم أن مجموعةً من الشباب وجدوا أنفسهم على حافة واحدة من تلك البرك في منتصف البحيرة تمامًا، كانت بركة صخرية عميقة بشكلٍ كبير، بالنظر إلى داخلها رأوا شيئًا في قاعها يلمع بلونٍ أصفر في ضوء الشمس. قفز فتى صغير وغطس فيها، كانت سبيكة من الذهب مغطاة بالكتابة، حملوها إلى الملك، كان مكتوبًا على أحد جوانبها تلك الكلمات:

الموت وحده ينجي من الْمَوْتُ الزُّؤَامُ.

الحب هو الموت، وكذلك الإقدام؛

الحب يمكنه أن يملأ عمق القبر.

الحب يعيش عندما يغمره موج البحر.

كان هذا غامضًا للغاية بالنسبة للملك والحاشية، ولكن ما كُتِبَ على الناحية الأخرى من السبيكة فسَّرَ الأمر قليلًا، وكان ما كُتِبَ كالتالي:

«إن كانت البحيرة تختفي، يجب عليهم البحث عن الحفرة التي يتسرب من خلالها الماء، ولكن سيكون من العبث محاولة إيقاف التسريب بأي وسيلة عادية، هناك شيءٌ واحدٌ يمكنه أن يكون ذا أثرٍ فعَّال، لا يمكن أن يمنع التدفق سوى جسدِ رجلٍ حي، يجب أنً يضحي هذا الرجل بنفسه بإرادته الحرَّة، ويجب أن تأخذ البحيرة حياته وهي تمتلئ، عدا ذلك ستكون التضحية بلا جدوى، إن لم تقدر الأمة على تقديم بطل واحد، إذن فقد حان وقت هلاكها».

***

ها أنا ذا

كان هذا اكتشافًا مؤسفًا بالنسبة للملك، ليس لأنه غير عازم على التضحية بأحد رعاياه، ولكن لأنه كان يائسًا من أن يجد رجلًا عازمًا على التضحية بنفسه، ولكن لم يكن هناك وقتٌ لإضاعته فالأميرة كانت مستلقية بلا حراك على فراشها، ولم تكن تقبل أيّ غذاءٍ سوى ماء البحيرة الذي لم يعد جيدًا كالسابق، لذا أمر الملك بأن تُنشر محتويات السبيكة العجيبة في أنحاء المملكة.

ولكن مع ذلك لم يأتِ أحد.

كان الأمير قد ذهب منذ عدة أيام إلى الغابة لاستشارة ناسك كان قد التقى به في طريقه إلى مملكة «لاجوبل»، ولم يعرف شيئًا عن النبوءة إلا بعد عودته، عندما ألم بالأمر من كل جوانبه جلس وفكَّر قائلًا لنفسه: «سوف تموت إن لم أفعلها، والحياة ستكون بلا

معنى من دونها، لذا لن أخسر شيئًا بفعل ذلك، والحياة ستكون مبهجة بالنسبة لها كما كانت من قبل، وهي سُرعان ما ستنساني، وسيكون هناك المزيد من الجمال والسعادة في العالم، ولكني لن أراه بالتأكيد!».

هنا تنهد الأمير المسكين ثم قال: «كم ستكون البحيرة جميلة في ضوء الشمس، مع تلك المخلوقة الرائعة وهي تسبح بها كأنما هي رُوح الطبيعة ذاتها! ولكن سيكون من الصعب الغرق في بضع بوصات، هناك سبعين بوصة مني يجب أن يغرقوا».

هنا حاول الأمير أن يضحك ولكنه لم يقدر، ثم أكمل: «ولكن كلما أخذ الأمر وقتًا أطول سيكون أفضل، ألست قادرًا على مساومتهم لكي تكون الأميرة معي طيلة الوقت؟ حينها سأكون قادرًا على رؤيتها مرة أخرى، ولَعَلِّي أُقبِّلُها مَن يدري؟ وأموت ناظرًا إلى عينيها، لن يكون موتًا أو على الأقل لن أشعر به، وسأرى البحيرة تمتلئ بالجمال مجددًا، حسنًا! أنا مستعد».

قبَّل حذاء الأميرة ثم وضعه جانبًا وأسرع إلى جناح الملك، ولكنه أحس وهو ذاهب أن أي شيء عاطفي سيكون مرفوضًا، لذا قرر أن يغلف العرض كله باللامبالاة، وهكذا طرق باب خزانة النقود، والتي يعد إزعاج الملك فيها جريمة عظمى.

عندما سمع الملك الطرق على الباب انتفض واقفًا وفتح الباب في غضب، عندما لم يرَ سوى ماسح الأحذية استلَّ سيفه، يؤسفني أن أقول إن هذه كانت طريقته المعتادة لتأكيد شرعيته عندما يشعر أن كرامته في خطر، ولكن الأمير لم يبدُ منزعجًا على الإطلاق، بل قال له: «من فضلك يا جلالة الملك، أنا كبير الخدم».

قال الملك بتعجب: «كبير الخدم! أيها الوغد الكاذب! ما الذي تعنيه؟».

قال الأمير: «أعني أنني سأضع سدادة في زجاجتك الكبيرة».

صاح الملك وهو يشهر سيفه: «هل أنت مجنون؟».

قال الأمير: «سأضع سدادة في بحيرتك المثقوبة أيها الملك العظيم».

كان الملك يشعر بغضبٍ كبير، حتى أنه قبل أن يجد وقتًا ليتكلم كان عليه أن يهدأ ليفكر أنه ستكون خسارة كبيرة أن يقتل الرجل الوحيد الذي كان مستعدًا أن يكون مفيدًا في هذه المشكلة الطارئة، طالما أن الرجل الوقح سيموت في النهاية على أيِّ حال كأنما قد مات على يد الملك، وأخيرًا قال وهو يغمد سيفه بصعوبة لأنه كان طويلًا للغاية: «أوه! أنا ممتنٌّ لك أيها الشاب الأحمق، أترغب في كوبٍ من العصير؟».

أجابه الأمير: «لا، شكرًا لك».

قال الملك: «حسنًا، هل ترغب في الذهاب لرؤية والديك قبل أن تبدأ التجربة؟».

قال الأمير: «لا، شكرًا لك».

قال الملك: «إذن سوف نذهب ونبحث عن الفجوة على الفور».

ثم بدأ يُنادي على بعض الخَدَم، فتدخل الأمير قائلًا: «لحظة واحدة يا جلالة الملك، لديَّ شرطٌ واحد».

صاح الملك: «ماذا! شرط! هل تجرؤ على أن تتشرط عليَّ؟».

أجابه الأمير ببرود: «كما تشاء، أتمنى لجلالتك صباحًا طيبًا».

صاح الملك: «أيها الصعلوك! سأجعلهم يضعونك في جِوال ويحشرونك في الفجوة».

أجابه الأمير بلهجة أكثر تهذيبًا خشية أن يحرمه غضب الملك من بهجة الموت من أجل الأميرة: «حسنًا جلالتك، ولكن ما الفائدة من فعل ذلك يا مولاي، أرجوك تذكر أن النبوءة تقول إن الضحية يجب أن يُقدِّم نفسه بإرادته».

قال الملك: «حسنًا، لقد قدَّمتَ نفسك».

قال الأمير: «أجل ولكن بشرطٍ واحد».

هدر الملك وهو يستل سيفه مجددًا: «تقول شرطًا مرة أخرى! اغرب عن وجهي، شخص آخر سيكون مسرورًا لأن ينال هذا الشرف بدلًا منك».

قال الأمير: «أنت تعرف جيدًا يا مولاي أنه ليس من السهل أن تجد شخصًا آخر ليحل محلي».

زمجر الملك وهو يشعر أن الأمير مُحِقًّا: «حسنًا، ما هو شرطك؟».

أجابه الأمير: «شرطي هو أنني لا يجب بأيِّ حالٍ من الأحوال أن أموت قبل أن أغرق بشكلٍ منصف، والانتظار سيكون مضجرًا لذا يجب على الأميرة، ابنتك، أن تذهب معي وتطعمني بيديها وتعتني بي من آنٍ لآخر لتريحني، فأنت لا يمكنك أن تنكر أن الأمر صعب حقًّا. بمجرد أن يصل الماء إلى عينيَّ يمكنها أن تذهب وتكون سعيدة وتنسى ماسح الأحذية المسكين».

هنا تهدج صوت الأمير وكاد أن يصير عاطفيًّا بالرغم من قراره، صاح الملك: «لِمَ لَمْ تخبرني من قبل ماذا يكون شرطك؟ كل هذا الإزعاج من أجل لا شيء».

قال الأمير بإلحاح: «إذن هل تقبل الشرط؟».

أجابه الملك: «أقبله بالطبع».

قال الأمير: «حسنًا، أنا مستعد».

قال الملك: «اذهب وتناول الغداء بينما أُرسل رجالي للبحث عن المكان».

أمر الملك حراسه، وأعطى توجيهاته لقادتهم للبحث عن الفجوة في البحيرة على الفور. وهكذا قُسِّمَ قاعِ البحيرة إلى قطاعات، وجرى تفتيشها بدقة. وفي غضون ساعة عُثِرَ على الفجوة، لقد كانت في منتصف صخرة بالقرب من مركز البحيرة في نفس البركة التي عُثِرَ فيها على السبيكة الذهبية، كانت فجوة ذات ثلاث زوايا، حجمها ليس كبيرًا، كان هناك ماء حول الصخرة، ولكن أقل القليل يتدفق عبر الفجوة.

***

هذا لطفٌ كبيرٌ منك

ذهب الأمير ليتأنق من أجل المناسبة، فقد قرر أن يموت كأمير.

عندما سمعت الأميرة أنَّ هناك رجلًا قد عَرَضَ أنْ يموتَ مِن أجلِها انقلب حالها رأسًا على عقب، حتى أنها قد قفزت من الفراش رغم ضعفها ورقصت في الغرفة من الفرحة، لم تُبالِ مَن يكون هذا الرجل، فذلك لم يعنِ شيئًا لها، هذه الفجوة يجب أن تُغلق، وإن كان الأمر يحتاج إلى رجلٍ لفعل ذلك فلمَ لا، فلتأخذ البحيرة حياة أحدهم. صار كل شيء جاهزًا في غضون ساعة أو اثنتين، ألبستها خادمتها في عجالة وحملوها إلى جانب البحيرة، عندما رأت البحيرة صرخت ثم غطَّت وجهها بيديها. حملوها عبر البحيرة إلى الصخرة، حيث كانوا قد وضعوا قاربًا صغيرًا من أجلها بالفعل.

لم يكن الماء عميقًا بما يكفي لكي يطفو، ولكنهم كانوا يأملون أن يصير كذلك قريبًا. أجلسوها على الوسائد ووضعوا في القارب عصيرًا وفاكهة وأشياء أخرى جميلة، ثم وضعوا مظلة فوق كل ذلك.

في غضون دقائق قليلة ظهر الأمير، تعرفت الأميرة عليه على الفور ولكنها لم ترَ أن الأمر يستحق أن تبدي معرفتها به.

قال الأمير: «ها أنا ذا، ضعوني في الحفرة».

قالت الأميرة: «لقد أخبروني أنه ماسح أحذية».

قال الأمير: «هو أنا، كنتُ أمسح أحذيتك الصغيرة ثلاث مَرّاتٍ في اليوم فقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن أحصل عليه منك، هيا ضعوني في الحفرة».

لم يُبدِ أحدٌ من الحاشية استياءه من فظاظته، إلا بقولهم لأحدهم الآخر إنه يتصرف بوقاحة.

ولكن كيف يمكن أن يضعوه في الحفرة؟ لم تحتوِ السبيكة الذهبية على أيِّ تعليمات بهذا الصدد، نظر الأمير إلى الفجوة، ولم يرَ سوى طريقة واحدة، وضع كلتا ساقيه فيها، ثم جلس على الصخرة وانحنى للأمام ليغطي الركن المتبقي بكلتا يديه، ومكث

في هذا الوضع المرهق لينتظر مصيره، ثم نظر إلى الآخرين وقال: «يمكنكم أن تذهبوا الآن».

كان الملك قد عاد إلى البيت بالفعل من أجل الغداء.

كررت الأميرة وراءه كالببغاء: «يمكنكم أن تذهبوا الآن».

أطاعها الناس وانصرفوا، وفي تلك اللحظة تدفقت موجة صغيرة من فوق الصخرة وبللت إحدى ركبتيّ الأمير، ولكنه لم يُبالِ كثيرًا.

بدأ الأمير يغني، وكانت أغنيته **كالتالي:**

كعالمٍ لا يشقه ينبوع،

يندفع عبر الغابة بكل سطوع؛

كعالمٍ بلا بريقٍ ينير الظلام،

لتيارٍ يتدفق بلا إحجام؛

كعالمٍ لا يرى أدنى أثر،

لمحيط شاسعٍ مستقر؛

كعالمٍ لا تمطر السماء،

فوق سهوله الجدباء؛

هكذا يا قلبي سيكون عيشك،

إن لم يتدفق الحب عبرك.

كعالم بلا أدنى صوت،

لجداولَ تجري تحت الأرض،

أو صوت خرير الينابيع،

وهي تسري في الربيع؛

أو نهرٍ يتدفق في الأرجاء،

مسرعًا بلا إبطاء؛

أو صوت موسيقى المطر الرنان،

تتساقط على قمم أشجار الزان؛

أو صوت المحيط الملتج،

وأمواجه العالية تبتهج؛

هكذا يا روحي سيكون عيشك،

إن لم يغنِ الحب حولك.

سيدتي، ابقِ عالمك سعيد،

وابقِ ناظريك على الماء البعيد.

لقد جعلني الحب من أجلك أستعد،

كي أذهب إلى عالمٍ منه لن أعد،

حيث لا يمكن لحرير الماء أو النور،

أن يصل إليه مخترقًا ظلمة الديجور.

دعيني أصلي إذن من أجلك،

أن يتدفق الينبوع في روحك،

لكيلا تصاب روحك الجميلة بالجفاف،

كأرضٍ طالتها سنينٌ عجاف.

قالت الأميرة: «غَنِّ مجددًا أيها الأمير، هذا يجعل الأمر أقل مللًا».

ولكن المشاعر غلبت الأمير فلم يقدر على الغناء أكثر من ذلك.

مرَّت فترة طويلة من الصمت، وأخيرًا قالت الأميرة بفتورٍ وهي مستلقية في القارب وعيناها مغلقتان: «هذا لطفٌ كبيرٌ منك أيها الأمير».

قال الأمير: «يؤسفني عدم قدرتي على رد المُجاملة، ولكنك تستحقين أن أموت من أجلك رغم كل شيء».

مرَّت موجة صغيرة أخرى من فوق الصخرة، تلتها أخرى، وأخرى، وبلَّلت كلتا ساقيَّ الأمير، ولكنه لم يتكلم أو يتحرك. مرَّت ساعتان، ثلاث، أربع، على هذه الحالة، وبدا أن الأميرة قد غرقت في النوم، ولكن الأمير تحلَّى بالصبر رغم خيبة الأمل التي أحس بها وهو في هذا الموقف، فهو لَمْ يَنَلْ أيًّا من السلوان الذي كان يأمل فيه.

وفي النهاية لم يعد قادرًا على التحمل أكثر من ذلك.

قال الأمير: «أيتها الأميرة!».

ولكن في هذه اللحظة استيقظت الأميرة فجأة وهي تصيح: «أنا أطفو، أنا أطفو».

ثم ارتطم القارب الصغير بالصخرة، كرر الأمير وقد شجعته رؤيتها مستيقظة وهي تنظر بلهفة إلى الماء: «أيتها الأميرة!».

قالت دون أن تنظر إليه: «ماذا؟».

قال لها: «لقد وعدني أبوكِ أنكِ ستعتنين بي، وأنتِ لم تنظري إليَّ ولو مرَّةً واحدة».

قالت الأميرة: «هل وعدك حقًّا؟ إذن أعتقد أنني يجب أن أفعل، ولكني أشعر بنعاسٍ شديد».

قال الأمير المسكين: «نامي إذن يا عزيزتي، ولا تشغلي بالك بي».

قالت الأميرة: «حقًّا؟ أنتَ طيب للغاية، أعتقد أنني سأخلد للنوم مجددًا».

قال الأمير بتواضعٍ شديد: «فقط أعطني أولًا كوبًا من العصير، وقطعة من البسكويت».

قالت الأميرة وهي تتثاءب: «على الرحب والسعة».

ثم أحضرت العصير والبسكويت ومالت على جانب القارب ناحيته واضطرت إلى النظر إليه. قالت الأميرة: «لماذا أيها الأمير؟ أنت لا تبدو بخير، هل أنت واثق أنك لا تُمانع فعل ذلك؟».

أجابها وهو يشعر بالضعف: «لا، على الإطلاق، ولكني قد أموت بدون أن أكون ذا نفعٍ لكِ ما لم أتناول شيئًا من الطعام».

قالت الأميرة وهي تمد له يدها بالعصير: «هاك إذن».

قال الأمير: «يجب أن تطعميني بيدك، فأنا لا أجرؤ على تحريك يديَّ، فالماء سيتسرب على الفور».

قالت الأميرة: «يا إلهي!».

ثم بدأت تطعمه قطعًا من البسكويت ورشفاتٍ من العصير.

كان يحتال وهي تطعمه ليقبل أناملها بين الحين والآخر، لم يبدُ عليها أنها تمانع ذلك بطريقة أو بأخرى، ولكن الأمير أحس بالتحسن.

قال لها: «الآن من أجل مصلحتك أيتها الأميرة لا يمكن أن أتركك تخلدين إلى النوم، يجب أن تعتني بي وإلا فلن أكون قادرًا على المواصلة».

قالت الأميرة باستسلام: «حسنًا سأفعل أي شيء لأرضيك».

ثم جلست ونظرت إليه، وظَلَّت تنظر إليه بثباتٍ عجيب وهي تفكر في كل الأمور.

غربت الشمس وبزغ القمر، ودفقة تلو الأخرى تصاعد الماء ليغرق جسد الأمير حتى وصل إلى خصره.

قالت الأميرة: «لمَ لا نذهب ونسبح الآن؟ يبدو أن هناك ما يكفي من الماء هنا».

قال الأمير: «لن أقدر على السباحة بعد الآن».

قالت الأميرة: «أوه، لقد نسيت». ثم لاذت بالصمت.

وهكذا ظلَّ الماء يزداد ويعلو مغرقًا جسد الأمير، بينما الأميرة جالسة وهي تنظر إليه وتطعمه بين الفينة والأخرى. مرَّ الليل ببطء، والماء يعلو ويعلو، والقمر كذلك يعلو ويعلو، ويلقي بضوئه على وجه الأمير الموشك على الموت، كان الماء قد وصل إلى عنقه.

قال الأمير بضعف: «هل ستقبلينني أيتها الأميرة؟». لقد كَفَّ عن تظاهره باللامبالاة.

قالت الأميرة: «أجل سأفعل». ثم قبلته قبلة طويلة حلوة باردة.

تنهد الأمير في رضا وقال: «الآن سأموت سعيدًا».

لم يتحدث مجددًا، أعطته الأميرة بعض العصير للمرة الأخيرة، لم يكن لديه رغبة في تناول الطعام، ثم جلست مجددًا ونظرت

إليه، كان الماء يعلو ويعلو، لمس ذقنه، لمس شفته السفلى، لمس ما بين شفتيه فأغلقهما بقوة ليبقي الماء خارجًا. بدأت الأميرة تشعر بإحساسٍ غريب، لمس الماء شفته العليا، صار يتنفس من خلال فتحتيّ أنفه، بدا على الأميرة القلق الشديد، غطى الماء فتحتيّ أنفه، ظهر في عينيها الرعب ولمعتا بشكلٍ غريب في ضوء القمر، أرجع رأسه للوراء فغمره الماء، وظهرت فقاعات نفسه الأخير عبر الماء. صرخت الأميرة ثم قفزت على الفور في البحيرة.

أمسكت أولًا بإحدى ساقيه، ثم بالأخرى، فجذبت وشدَّت، ولكنها لم تستطع تحريك أيٍّ منهما، توقفت لتأخذ نفسها فجعلها هذا تفكر في أنه لا يستطيع أن يتنفس، أحست بالذعر وأمسكت به ثم رفعت رأسه فوق الماء وهو ما كان ممكنًا لأن يديه لم تعودا في الفجوة، ولكن كان هذا بلا فائدة فهو قد توقف عن التنفس. أعاد الحب والماء لها كل قوتها، فغطست في الماء ثم جذبت وجذبت بكل ما لديها من عزم، حتى استطاعت أخيرًا أن تُخرج إحدى ساقيه، وتبعتها الأخرى بيسر. لا تستطيع القول كيف استطاعت أن تضعه في القارب، ولكنها بعدما فعلت ذلك فقدت الوعي، عندما استعادت وعيها أمسكت بالمجدافين وأبقت نفسها ثابتة قدر المستطاع، وبدأت تجدف وتجدف رغم أنها لم تجدف

من قبل، جدفت حول الصخور وفوق المياه الضحلة وعبر الطين حتى استطاعت أن تصل إلى درجات سلم القصر السفلي. بحلول هذا الوقت كان هناك أشخاصٌ على الشاطئ، فقد سمعوا صرختها، فجعلتهم يحملون الأمير إلى حجرتها ويرقدونه على فراشها ويشعلون النار، ثم أرسلت في طلب الأطباء.

قال الحاجب الذي استيقظ على الضوضاء وأتى برداء نومه: «ولكن ماذا عن البحيرة سموك؟».

قالت له الأميرة: «اذهب وأغرق نفسك فيها».

كانت هذه هي آخر مرة تتكلم فيها الأميرة بتلك الفظاظة، ولكن يجب على المرء أن يعترف أنه كان لديها سببٌ وجيهٌ لتشعر بالاستفزاز من الحاجب، ولو كان الملك نفسه لما سلم من لسانها، ولكن الملك والملكة كانا يغطان في نومٍ عميق، أما الحاجب فقد عاد إلى فراشه.

لسببٍ ما لم يأتِ الأطباء فظلَّت الأميرة ومربيتها العجوز وحدهما مع الأمير، ولكن المربية كانت امرأة حكيمة وتعرف ما يجب فعله.

جرَّبتا كلَّ شيء لوقتٍ طويل بلا أي نجاح، كانت الأميرة تشعر بمزيجٍ من الأمل والخوف، ولكنها ظلَّت تحاول وتحاول، شيئًا تلو الآخر، وكُلَّ شيءٍ تُجرِّبُه مرارًا وتكرارًا.

وفي النهاية بعدما فقدت كلتاهما الأمل، ومع شروق الشمس، فتح الأمير عينيه.

***

انظر إلى المطر!

انفجرت الأميرة في دموعٍ من الفرح وسقطت على الأرض، وهنالك استلقت لمدة ساعة دون أن تتوقف دموعها، كل الدموع المكبوتة طيلة حياتها كانت تذرفها الآن، ثم جاء المطر بطريقةٍ لم ترها المملكة من قبل، كانت الشمس تلمع طيلة الوقت، والقطرات الكبيرة التي سقطت مباشرة ناحية الأرض كانت تلمع مثلها. كان القصر في قلب قوس قزح، كان مطرٌ من الياقوتِ واللَّازَوَرْدِ والزمردِ والعقيق. تدفقت التيارات من الجبال كالذهب المصهور، ولولا المصرف الموجود أسفل الأرض لفاضت البحيرة وغمرت المملكة، لقد امتلأت تمامًا من ضفة إلى أخرى.

ولكن الأميرة لم تهتم بشأن البحيرة، لقد استلقت على الأرض وبكت، وكان المطر بالداخل أكثر روعةً من المطر بالخارج.

وعندما خفَّت حدة البكاء وحاولت الأميرة أن تنهض أدركت في دهشة أنها لا تستطيع.

في النهاية وبعد محاولاتٍ عديدة استطاعت أن تنهض على قدميها ولكنها تعثرت وسقطت مجددًا على الفور. سمعت المربية العجوز صوت سقوطها فصرخت في بهجة وركضت ناحيتها وهي تصيح: «طفلتي العزيزة! لقد عثرت على جاذبيتها!».

قالت الأميرة وهي تدلك كتفها وركبتها بالتناوب: «أوه، هذه هي الجاذبية! أليس كذلك؟ أرى أنه إحساسٌ غير جيد، أشعر كأنني سوف أتحطم إلى شظايا».

صاح الأمير من الفراش: «مرحى! لقد أفقتِ أيتها الأميرة، وأنا كذلك. ما أخبار البحيرة؟».

أجابته المربية: «لقد امتلأت عن آخرها».

قال الأمير: «إذن فنحن جميعًا سعداء».

أجابته الأميرة وهي تبكي: «نحن سعداء الفعل!».

وهكذا عَمَّتِ البهجة أنحاء المملكة في هذا اليوم المطير، حتى الأطفال نسوا هموم الماضي ورقصوا وصاحوا بشكلٍ مدهش، وحكى الملك حكاياتٍ وأنصتت الملكة له، وقسَّم المال الموجود

في صندوقه، وقسَّمت هي العسل الموجود في إنائها بين الأطفال، وكان هناك ابتهاجٌ لم تشهد المملكة مثيلًا له من قبل.

بالطبع خطَبَ الأميرُ الأميرةَ على الفور، ولكن كان على الأميرة أن تتعلم المشي قبل أن يستطيعا أن يتزوجا بشكلٍ لائق، ولم يكن هذا سهلًا في تلك المرحلة من عُمرها، فهي لا تستطيع أن تمشي أفضل من رضيع، فكانت دومًا تسقط وتؤذي نفسها.

ذات يوم قالت والأمير يساعدها للنهوض من على الأرض: «أهذه هي الجاذبية التي كنتم تمتدحونها كثيرًا؟ بالنسبة لي فأنا كنت أكثر راحة بدونها».

أجابها الأمير وهو يحملها كالطفلة: «لا ليست هذه هي الجاذبية، بل هذه هي». ثم أخذ يقبلها وهو يقول: «هذه هي الجاذبية».

قالت الأميرة: «هذا أفضل، لا أمانع ذلك كثيرًا».

ثم ابتسمت للأمير أجمل وأحلى ابتسامة، وقبلته قبلة واحدة صغيرة مقابل كل قبلاته، وأحس أنها قد أجزلت له العطاء في رد قبلاته، وأحس بسعادة غامرة. أخشى أنها لاحقًا قد اشتكت من جاذبيتها أكثر من مرة رغم ذلك.

مرَّ وقتٌ طويل قبل أن تعتاد على المشي، ولكن كان هناك أمران ساعدا في موازنة الألم الذي تشعر به أثناء تعلم المشي، وأيٌّ

منهما كان ليصير تعزية كافية، الأول هو أن الأمير نفسه كان معلمها، والأمر الثاني هو أنها تستطيع أن تقفز في البحيرة متى تشاء، ولكنها مع ذلك كانت تفضل أن تقفز بصحبة الأمير، وصار الماء يتناثر عند سقوطهما بشكلٍ يفوق ما كان يحدث سابقًا بشكلٍ لا يُقارن.

لم تنحسر البحيرة مرة أخرى، ومع مرور الوقت، غطت البحيرة سقف الكهف تمامًا وأصبحت أعمق مرتين من ذي قبل.

الأمر الوحيد الذي انتقمت به الأميرة من عمتها هو أن وطأت بقوة أصابع قدمها عندما رأتها في المرة التالية، ولكنها أحست بالأسف في اليوم التالي عندما سمعت أن الماء قد قوَّضَ بيتها، وأنه قد سقط عليها في المساء ليدفنها تحت أنقاضه، حيث لم يجرؤ أحد على المغامرة بإخراج جثمانها، وهنالك ترقد حتى يومنا هذا.

وهكذا عاش الأمير والأميرة في سعادة وهناء، وصار لهما تاجان من الذهب وملابس من الجوخ وأحذية من الجلد، وأطفالٌ من البنين والبنات، ولم يُعرف عن أيٍّ منهم في أي مناسبة من المناسبات أنهم قد فقدوا ذرة واحدة من جاذبيتهم الملائمة.

ـ تمت ـ

***

عن المترجم

أحمد صلاح المهدي، كاتب مصري، تخرج في كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة. هو روائي ومترجم وناقد، متخصص في الفانتازيا والخيال العلمي، وأدب الأطفال واليافعين.

نُشرت له عدة روايات مثل: «ريـــم» و «البرديات الإغريقية: مبعوث مورفيوس» من أدب الفانتازيا، و «ملاذ: مدينة البعث» و «الشتاء الأسود» من أدب الخيال العلمي.

نُشرت له الترجمات العربية لأعمال إنجليزية عديدة مثل: رواية «الإله العظيم بان» للكاتب الويلزي آرثر ماكين، ورواية «الوينديجو» للكاتب البريطاني ألجرنون بلاكوود، وكتاب «آلهة بيجانا» للكاتب الآيرلندي لورد دونساني.

له مقالات أدبية ونقدية في مجلات ومواقع عربية وأجنبية، وعددٌ من القصص في مجلات الأطفال، وساهم بترجمة عدد من الروايات المصورة وكتب الكومكس مثل: «بطل الظل» و «اسم المستخدم: إيڤي» و «القلب والعقل» و «النضج خرافة» و «التنين الأخير».

الموقع الرسمي للكاتب:

http://ahmedmahdi.net

***

الفهرس

مقدمة المترجم..... ٥
ماذا! لا أطفال؟..... ٩
لم ينس سواي؟..... ١١
لا يمكن أن تكون ابنتنا؟..... ١٥
أين هي؟..... ١٩
ما العمل؟..... ٢٣
إنها تضحك أكثر من اللازم..... ٢٩
جرِّب الميتافيز يقيا..... ٣٣
جرَب قطرة ماء..... ٤١
أعدني مجددًا..... ٤٧
انظر إلى القمر..... ٥٧
فحيح!..... ٦٣
أين الأمير؟..... ٧١
ها أنا ذا..... ٧٥
هذا لطفٌ كبيرٌ منك..... ٨١
انظر إلى المطر!..... ٩٣
عن المترجم..... ٩٧

الكنزي
ALKANZY